رواية

تسبيحة الزمن

الجزء الأول

رويدة الدعمي

١

عاشت تسنيم مع زوجها بهاء أجمل أيام حياتها، كان لها نعم العون والسند وخاصة بعد رحيل والدتها إلى الرفيق الأعلى .. حاول بهاء جاهداً أن لا تشعر زوجته بأي وحدة أو غربة بعد فقدها لوالدتها فكان يواسيها بكل ما يستطيع .

شجعها على إكمال دراستها الجامعية، وفعلا فقد أكملت تسنيم دراسة الماجستير وأصبحت استاذة جامعية في نفس الجامعة التي يعمل فيها زوجها.

وبعد مضي ثلاثة أعوام على زواجهما صارت هواجس عدم الإنجاب تنغص عليهما حياتهما.. صارت تسنيم تلح على بهاء بأجراء فحوصات طبية لمعرفة السبب لكنه كان يرفض متعللاً بالقول: اتركي هذا الأمر لله تعالى فهو الذي يقرر مصيرنا.

لكنها كانت قلقة جداً فهي تخشى أن يكون السبب والعلة فيها هي، حينها ما ذنب بهاء؟!

لم يدع بهاء هذه المخاوف تسيطر على زوجته كثيراً فلطالما كان يسليها ويقنعها بأنه لا يشعر بحاجته للأطفال مطلقًا!

أما هي فكانت تعرف بأن هذه مجرد عبارات يرددها بهاء لتترك التفكير بمسألة الأطفال.

فكم من مرة رأته وهو يجلس أمام شاشة التلفاز يتابع برامج الأطفال وينظر إليهم وإلى وجوههم البريئة بعينين دامعتين! نفس الشيء كان يحدث معها، حينها تمسح دموعها وهي تردد : لا تحرمنا عطائك يا الله.

بدأت السنة الدراسية الجديدة، وها هما يتجهان إلى قاعات التدريس للإلتقاء بطلابهما من جديد..

دخلت تسنيم إلى قاعة المرحلة الثالثة وكم كانت فرحة الجميع لا توصف وهم يلتقون بأستاذتهم المحبوبة تسنيم.

أما بهاء فكان عليه أن يُرحب بطلاب المرحلة الأولى.. يتعرف عليهم ويعرفهم نفسه.

دخل القاعة وألقى التحية عليهم، لاحظ الطلاب ما يتمتع به أستاذهم هذا من هيبة ووقار..

أما مريم – إحدى طالبات المرحلة الأولى – فلقد رأت فيه أكثر من كونه مهيبًا ووقورا !

٢

مضت الأيام وقلق تسنيم يتزايد يومًا بعد يوم حول تأخر الحمل كل هذه الفترة، أصرت في إحدى المرات على زوجها بالقول :

– اليوم يجب أن نذهب إلى مختبر الفحوصات فلم أعد أطيق الانتظار أكثر..
– لكن لماذا كل هذا الإلحاح؟
– لا أعرف.. أشعر بأن وقت الفحوصات قد حان فلقد صار القلق يؤرقني كثيراً.
سألها بهاء بترقب :
– وإن أظهرت التحاليل بأن السبب مني؟! فهل ستتركيني لأجل الأطفال؟!
أمسكت تسنيم ذراعه وهي تقول :
– أقسم بالله على أنني سأبقى معك حتى آخر لحظة من حياتي.
إنصاع الزوج لطلب وإلحاح زوجته ورافقها إلى مختبر التحاليل الطبية..
وبينما هما يجلسان في صالة الانتظار خرج المحلل وهو يحمل نتيجة فحوصاتهما، قام بهاء ليأخذها وما أن وقعت عيناه على النتيجة حتى دسَّها في جيبه.
سألته تسنيم : خير يا بهاء؟
– لا شيء حبيبتي هيا بنا إلى مختبر آخر.
– ولكن ما هي النتيجة؟ لماذا لا تدعني أنظر إليها ؟
– دعكِ منها.. إنه مختبر فاشل!
صمتت تسنيم وقلبها يعربد وتنذرها دقاته السريعة بأن هناك أمرًا سيئًا قد حصل..
لم تكن نتيجة المختبر الثاني تختلف عن نتيجة المختبر الأول حينها امتنعت تسنيم عن الصعود إلى السيارة وهي تقول :
– أقسم عليك بالحبيب المصطفى أن تصدقني الخبر يا بهاء!
لم يكن بإمكانه أن يخبرها شيئًا، قال لها أخيراً :
– اصعدي وسأوصلكِ إلى الطبيبة لتخبركِ بنفسها، فلعلني مخطأ في قراءة النتيجة.
دخلت غرفة الطبيبة والتي ما إن قرأت ورقة التحاليل حتى أخذت حسرة وهي تنظر لتسنيم، ثم صارت تواسيها بالقول : فوضي أمركِ لله، إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون.

٣

حاولت تسنيم مع مرور الأيام أن تتقبل فكرة كونها غير قادرة على الإنجاب، ولكن الفكرة التي لا تستطيع تقبلها على الإطلاق هي كونها ستكون السبب الحقيقي في بقاء بهاء محروماً من الأطفال طوال حياته!

صارت تسهر الليالي باكيةً شاكية حالها إلى الله تعالى فهي لا تريد أن تكون السبب في تعاسة زوجها والذي لازمها وساندها منذ بداية زواجهما وإلى الآن، لطالما حاولت فتح موضوع عقمها أمامه لكنه كان يغلق الموضوع ويتوسل إليها بأن لا تكرر هذه الكلمات أمامه مطلقًا.

في هذه الفترة اكتشف بهاء أمر طالبته مريم ومدى تعلقها الكبير به..

لاحظ ولمرات عديدة ارتباك هذه الفتاة إذا ناداها بإسمها أثناء المحاضرة!

كما لم يخفَ عليه استراقها النظر إليه عندما يكون واقفًا مع أحد الأساتذة أو الطلاب في ممرات الجامعة!

كانت تتابعه كظله حتى خشي أن يصل الخبر لزوجته..

لقد صادف فتيات كثيرات أبدينَ اعجابهن به لكن أمر هذه الفتاة زاد عن حده!

لم تكن مريم تعرف بأن بهاء متزوج من إحدى استاذات الجامعة.. نعم هي تعرف بأنه متزوج من خلال خاتم الزواج الذي كان يلبسه في يده اليسرى لكن مسألة الأستاذة تسنيم وصلتها بهِ كانت خافية عليها حتى جاء ذلك اليوم الذي رأت فيه بهاء وهو يقوم بفتح باب السيارة لتسنيم التي جلست في المقعد الأمامي بجانبه!

تفاجأت وقالت في نفسها : قد تكون شقيقته أو إحدى قريباته..

أسرعت مريم إلى شهلاء تلك الطالبة الخبيرة بكل ما يدور في الجامعة!

سألتها بقلق :

– شهلاء بربكِ.. ما علاقة الأستاذ بهاء بالأستاذة تسنيم؟

رفعت شهلاء رأسها وقد اتسعت حدقتا عينيها وهي تسأل :

– ماذا؟ هل من المعقول انكِ إلى الآن لم تعرفي حقيقة الصلة بينهما؟!

– أوه.. أرجوكِ أسرعي بالإجابة : هل هما قريبان؟!

– إنها زوجته يا ساذجة!

– ماذا.. زوجته؟

وضعت مريم يدها على جبينها فلقد شعرت بالدوار حينها اتكأت على كتف شهلاء ثم سحبت أقرب كرسي وجلست عليه وقد تلألأت عيناها بالدموع..

أخرجت منديلا من حقيبتها الصغيرة وصارت تمسح تلك الدموع التي أبت إلا النزول!!

تفاجأت شهلاء من موقف مريم وقالت بمزيد من الخبث :

– والأكثر من هذا يا ساذجة إنه يحبها إلى حد الموت!
كانت مريم تستمع بصمت، فإكملت شهلاء ثرثرتها بالقول :
– إنه مهووس بل مجنون بها..
مسحت مريم دموعها ونظرت لشهلاء شزراً وهي تقول :
– ألا ترين بأنكِ تبالغين كثيراً بوصفكِ هذا؟ فأين الأستاذ بهاء من الهوس والجنون! فأنا لا أراه إلا رجلا عاقلا محترما.. وحتى عندما كان مع الأستاذة تسنيم قبل قليل لم ألحظ عليه شيئًا مما ذكرتِه الآن!!
– ما بكِ يا بلهاء؟ وهل تريديه أن يُظهر هذه الأمور أمامكِ وأمامي؟!
إن الجميع يتكلمون عن عشقه لها وتفانيه اللامحدود في حبها و..
– اصمتي أيتها الثرثارة، ليتني لم أسألكِ!
– إسمعي يا مريم إن الأستاذة تسنيم كانت سببًا لبقاءه إلى الآن بدون أطفال.
– ماذا ؟ وكيف عرفتِ ذلك!
– سمعت إحدى الاستاذات تتكلم مع أخرى في هذا الموضوع.
كان لهذا الخبر وقعه وأثره الكبير في قلب مريم التي انفتحت أساريرها وهي تطلب من شهلاء الاستمرار في نقل الأخبار لها، فتكلمت الأخيرة بمكر :
– لكن لا يعني هذا بأنه سيفكر في إمرأة أخرى صدقيني، وإن كنتِ تريدين التأكد من كلامي تقربي لزوجته بحجة طلب النصيحة الدينية واعقدي صداقة معها لتخبركِ بنفسها عن كل هذا.
تساءلت مريم بدهشة :
– أطلب منها النصيحة؟!
– نعم فهي إنسانة ملتزمة كما يتضح من حجابها وعباءتها التي تتمسك بها أينما ذهبت حتى في قاعة المحاضرات عندما تلقي الدرس! ولقد أثرت على الكثير من الطالبات فقلبت وضعهن نحو الإلتزام والتدين.
– ولكن كيف عرفتِ كل ذلك عنها؟!
– من طالبات المراحل التي سبقتنا طبعًا.

٤

بقت مريم تفكر في كلمات تلك الفتاة حتى استقر رأيها على العمل بما قالته لها وهو التقرب من الأستاذة تسنيم ومحاولة عقد صداقة معها.

وفي إحدى المرات اقتربت مريم من غرفة الأستاذة وطرقت الباب مستأذنة في الدخول..

– تفضلي عزيزتي

دخلت مريم والارتباك باديًا عليها وجلست في الكرسي الذي وضع بجانب طاولة المكتب، قالت تسنيم وهي تمعن النظر في هذه الفتاة الهادئة :

– هل من خدمة أقدمها لكِ..؟

لاحظت تسنيم ارتجاف يد تلك الفتاة فقالت في نفسها :

– مسكينة.. حتمًا هي تعاني من مشكلةٍ ما!

أخيرًا نطقت مريم قائلة :

– إنني بحاجة إلى النصيحة.

انفتحت أسارير تسنيم ومدت يدها نحو مريم وأمسكت بها وهي تقول :

– الهذا ترتجف يداكِ أختي؟!

كان في يد تسنيم من الدفأ والحنان ما لم تستشعره مريم إلا في يد أمها!

لفّت أناملها حول أنامل تسنيم وهي تقول :

– ما أدفأ يديك.. أستاذة!

بإبتسامة أجابت تسنيم :

– كيف لا تكون يدي دافئة بالنسبة ليدكِ التي تكاد تتجمد من البرودة!

دمعت عينا مريم وهي تردد مع نفسها : أظن بأن الأستاذ بهاء مُحِق في حبهِ لهذه الانسانة، كل شيء فيها يدعو للطمأنينة.. قالت أخيرًا :

لقد سمعت عنكِ الكثير وعرفت أنكِ تسببتِ في هداية عشرات الطالبات إلى الطريق الصحيح، وأنا الآن اتوسل إليكِ أن تُقدمي لي نصائحكِ فقد أكون بأمس الحاجة إليها.

وقبل أن تتكلم تسنيم رنَّ جهازها المحمول فنظرت إليه ثم قالت :

– إنه زوجي.. انتظري لأحدثه.

إحمرَّ لون وجه مريم وشعرت بحرارة حارقة تخرج من جسدها لتحيل تلك البرودة التي كانت تشعر بها إلى جمر صار يلفح جميع اعضائها!

– السلام عليك.. بهاء، هل أكملت محاضراتك؟

وهنا جاء صوت بهاء واضحًا فلقد كانت مريم تجلس قريبة جدًا من تسنيم فسمعت كلماته وهو يقول :

– نعم الحمد لله.. وأنتِ هل انتهيتِ من أعمالكِ أم ما زال لديكِ أعمال أخرى؟!

كانت دقات قلب مريم تتزايد مع كل كلمة تسمعها ونسيت نفسها للحظة فصارت تتخيل أن هذه الكلمات موجهة إليها..

وهنا قطعت عليها تسنيم أحلامها حينما أجابت :

– بالنسبة لمحاضراتي فلقد اكملتها جميعها لكن الآن لديَّ ضيفة عزيزة فأرجو أن تنتظرني نصف ساعة أخرى، وإن كنت متعب إذهب للبيت وأنا سأستقل سيارة أجرة عند قدومي.

علت نبرة الصوت فصار يبدو أكثر وضوحًا لمريم :

– ماذا؟ أتركك لوحدك! وهل جننت أنا حتى أفعل هذا الأمر! سأنتظركِ حتى تنتهي من جميع أعمالكِ.

لم تستطع مريم تحمل هذه الكلمات وخافت أن تفضحها دموعها، فقامت من مكانها وهي تقول : يجب أن أرحل سيدتي، لا اريدكِ أن تتأخري على زوجكِ كثيراً.. وسأزوركِ غداً بإذن الله.

وقبل أن تطلب منها تسنيم البقاء خرجت مريم راكضة ودموعها تنزل بحرارة.

وقفت عند أول منعطف في ذلك الممر الطويل وصارت تمسح تلك الدموع وهي تردد مع نفسها :

ولكن ما الذي جرى؟ هل تأكدت من كل شيء كنت أخشاه! نعم، نعم لقد صدقت شهلاء حين قالت إنه يتفانى في محبتها!

رفعت مريم عينها فإذا بالاستاذ بهاء ينظر إليها بدهشة وهو يتجه نحو غرفة زوجته.

وقفت قليلا ليسألها إن كانت تعاني من مشكلة سببت لها هذه الدموع، لكنه غير رأيه عندما رآها تبتعد عنه بارتباك!

دخل غرفة زوجته التي بدت مستاءة جداً، قال بعد إلقاء التحية :

– هل ضيفتكِ رحلت بسبب مكالمتي لكِ؟

– نعم أظنها خشت أن تؤخرني عنك فقررت الرحيل.

ثم أردفت بحزن :

لكنني أظن بأنها كانت على وشك البكاء عندما أدارت وجهها وخرجت!

حينها تكلم بهاء مع نفسه : هل يمكن أن تكون تلك الضيافة هي نفسها مريم؟!

سأل زوجته باهتمام :

– هل كانت طالبة؟

– نعم لكني أظنها في المرحلة الأولى، لأني لم أرها سابقًا فهي ليست في المراحل الثلاث التي أدرسها.

– هل تقصدين أنها من طلابي؟

– على الأكثر.. نعم.

تغيرت ملامح بهاء حينما تأكد من إن تلك الضيفة هي نفسها مريم!
ظلَّ بهاء يفكر في أمر هذه الفتاة التي ظهرت فجأة في حياته هو وزوجته..
ما الذي تريده مريم من تسنيم؟!!

٥

توطدت أواصر العلاقة بين تسنيم ومريم وصارا مثالا للصداقة والمحبة والوفاء..
كان بهاء يزداد قلقًا يومًا بعد يوم وهو يرى زوجته تتمشى في أوقات فراغها مع تلك الفتاة بل وصارت ترافقها إلى أماكن الإستراحة وإلى مطعم الجامعة!
أما في المنزل فكانت تسنيم لا تمل من ذكر مريم أمام بهاء وهي تكلمه عن حبها للتعرف على أمور الدين وعن أخلاقها وطيبة قلبها ووووو...
حينها أُسقط في يد بهاء وهو يشعر أنه لم يعد يتحمل هذا الوضع فقال بعصبية :
– ولكن أي التزام هذا التي تتحدثين عنه؟ الا تلاحظي المكياج الذي تضعه تلك الفتاة في وجهها؟!
تفاجأت تسنيم من ردة فعله هذه وقالت بهدوء :
– أولاً أنا لم أذكر كلمة (التزام) أبدًا بل قلت إنها تحب أن تتعلم الكثير عن الدين، وثانيًا أنت تعرف بأنني لا أسدي النصيحة إلا لمن يطلبها مني وهي إلى الآن لم تسألني عن المكياج وهل هو حرام أم لا..
– ولكن ألم تقولي بأنها طلبت منكِ النصيحة منذ أول لقاء بينكما؟!
– نعم صحيح لكني أتركها هي من تختار المحور الذي نتكلم فيه في كل مرة.. هذا يكون أبلغ في التأثير حسب رأيي.
قال باستياء :
– اسمعي يا عزيزتي.. لا أعرف لماذا لستُ مرتاحًا لهذه الفتاة فرغم إنها طالبتي لكني أخشى عليكِ منها.
ضحكت بصوتٍ عالٍ وهي تردد :
– ماذا؟! وهل ستأكلني تلك الفتاة مثلا؟!
– لا أقول بأنها ستأكلكِ، لكن قلبي يعلمني بأن أموراً ستتطور للأسوء إن استمرت هذه العلاقة بينكما.
قالت بدهشة :
– ولكن بربك يا بهاء أين الأمر السيء في هذه العلاقة حتى تتوقع الأسوء بعد ذلك؟!!
قام من مكانه وهو يجيبها باستياءٍ أكثر :
– لا أعرف.. ولنغلق الموضوع.
في اليوم التالي وفي وقت اللقاء بين تسنيم ومريم اتجه بهاء نحو غرفة المكتب الخاصة بزوجته فوجدها جالسة لوحدها فتنفس الصعداء ثم قال :
– الحمد لله أنها لم تحضر اليوم.
قالت وهي تنظر لساعتها اليدوية :

– ستأتي بعد عشر دقائق..
قال وهو يحاول استعجالها في الخروج :
– حاولي تأجيل هذا اللقاء اليوم فأنا متشوق للخروج معكِ في نزهة.
اتسعت حدقتا عينيها الجميلتين وهي تسأل باستغراب :
– نزهة؟ وفي وقت الظهيرة!!!
ثم اردفت : كما أني متعبة يا بهاء وأظنك أنت كذلك! أراك تحاول إبعادي عن مريم بأي طريقة.. صحيح ؟
– نعم، لا أريد أن تلتقيا..
– ولماذا اليوم بالذات؟!
– ليس اليوم فقط، بل أنا أتمنى أن لا تلتقيا إلى الأبد.
– ولكن لماذا كل هذا التحامل عليها، إن أمرك عجيب يا رجل!
قال بعصبية :
– هل تخرجين معي الآن أم أذهب؟!
– حسنٌ حسن.. سأذهب معك لكن دعني أخبرها قبل الخروج فليس من اللائق أن ألغي الموعد هكذا!
– نعم اذهبي وأخبريها بأني متشوق للتنزه معكِ لذلك لا تستطيعين لقاءها اليوم لأنكِ ستكونين معي.. هل فهمتِ؟ أخبريها ذلك بالحرف الواحد.
ضحكت تسنيم وحسبت أن بهاء يغار من مريم لأنها احتلت مكانًا واسعًا في قلب زوجته!
وبينما كانت تسنيم تلملم أوراقها من على سطح المكتب لتضعها في الدولاب دخلت مريم التي هالها كثيرًا رؤية بهاء في مكتب تسنيم وفي هذا الوقت!
وما أن رآها حتى اتجه نحو زوجته وسحبها من يدها مردداً : هيا يا حبيبتي اسرعي..
ثم نظر إلى مريم قائلا : اعذرينا يا آنسة، فاليوم قد دعوت زوجتي للطعام خارج المنزل.
تفاجأت مريم من كلام بهاء وحسبته يطردها ليس من مكتب زوجته فحسب بل من حياتهما نهائياً!
اعتذرت منها تسنيم ولم تستاء كثيرًا لأنها ارجعت هذا التصرف الذي صدر من زوجها إلى كونهِ صار يغار عليها من مريم ليس أكثر!!
نعم كان بهاء يغار على تسنيم من أي شخص يقترب منها وليس من مريم فقط! لكن هذه المرة لم يكن دافع الغيرة هو السبب في استياءه هذا، بل مخاوفه التي صارت تتزايد يومًا بعد يوم فهو يرى نظرات مريم له منذ دخوله القاعة الدراسية حتى خروجه، فهي لا تكف عن النظر إليه والتمعن في وجهه وحركاته أثناء المحاضرة وخارجها!
فكيف لهذه الفتاة أن تكون نيتها سليمة عندما تعقد صداقة قوية مع زوجته؟!

كان يخشى أن تكون مريم فتاةً لعوبًا تحاول التصيد في الماء العكر مستغلةً بذلك طيبة قلب زوجته ودماثة أخلاقها.

٦

اتجهت مريم في اليوم الثاني نحو مكتب تسنيم وهي تخشى أن تجد بهاء هناك.
وما أن وصلت حتى وجدت تسنيم في انتظارها وأطلقت أنفاسها المحبوسة عندما وجدت أن الأستاذ بهاء غير موجود فقالت وقد حاولت أن تبدو طبيعية :
– هل كانت نزهتكما جميلة يوم أمس؟
– جميلة؟ لا... بل كانت رائعة !
لقد اتجهنا نحو المطعم لتناول الغداء هناك، ثم ذهبنا إلى بعض مراقد الصالحين وقبل حلول المساء اتجهنا الى حديقه الطيور..
ثم استمرت تسنيم في كلامها دون الالتفات إلى التغير الذي طرأ على مريم بعد سماعها هذه الكلمات ، وعندما لم تجد تسنيم تجاذبًا لأطراف الحديث من مستمعتها قالت أخيراً :
– أرجو أن لا تكوني مستاءة من بهاء يا مريم..
– لا لا ابدا، لقد نسيت الموضوع!
– الحمد لله.. لكن هل تعرفين؟
– ماذا؟
– لقد سألني قبل أيام عن المكياج الذي تضعينه وقال لي : لماذا إلى الآن لم تتكلمي مع مريم حول حرمة المكياج والتبرج؟
بقت مريم صامتة وهي تتصبب عرقًا من الخجل ولم تجرأ على السؤال أو الاستفسار حول سبب سؤاله ذاك ، وأردفت تسنيم بالقول :
– أجبته بأني لا أسدي النصيحة إلا لمن يطلبها مني أو أرى استعداداً لتقبلها..
وهنا تكلمت مريم متلعثمة :
– وهل.. هل الأستاذ بهاء يكره الفتاة المتبرجة ؟
– لا أقول يكرهها.. لكنه يحاول تجنبها لأنها برأيه.. صمتت تسنيم، فقالت مريم بتردد :
برأيه ماذا؟
– لأنها برأيه فتاة الشيطان.
صاحت مريم دون وعي : ماذا؟ الشيطان!

ثم توسلت إلى تسنيم أن تصدقها القول في كل كلمة متسائلة :
– ولماذا هذه التسمية بالذات؟ فما دخل الشيطان في هذا كله..؟
قالت تسنيم وهي تحاول تهدئة صاحبتها :
– الشيطان يا مريم هو الذي يجر الفتيات والنسوة إلى هذا التصرف.
وإلا ماذا بربك يمكن أن نسمي هذا التصرف إن لم يكن شيطاني؟
قالت مريم بسرعة :
– فطري وغريزي ! نعم هو غريزة في المرأة منذ خلقها الله سبحانه وتعالى.. أم أنا مخطئة يا أستاذة ؟
أجابتها تسنيم وقد اعتدلت في جلستها خلف ذلك المكتب الخشبي وشبكت كفيها مع بعض قائلة :
– الفطرة يا حبيبتي هي التصرف السليم الذي وضعه الله في الإنسان منذ خلقه، قال تعالى (فطرة الله التي فطر الناس عليها)
فلا يمكن أن يجعل الله في الإنسان فطرةً سليمة ثم بعد ذلك يقوم بتحريمها على لسان انبيائه ورسله!! إنه تعالى خلق الجمال للمرأة صحيح لكنه في نفس الوقت حرم إظهار ذلك الجمال بشكل ملفت للنظر بما يؤدي إلى أذيتها والانتقاص منها عندما ينظر لها المجتمع فقط كوسيلة لاشباع غريزة الجنس! تلك الغريزة الفطرية إنما وضعها الله تعالى لاستمرار الخليقة بشكلها الصحيح من خلال الزواج وتأسيس عائلة عن طريق علاقة مقدسة ، أما إذا ظهرت مفاتن المرأة في كل مكان وزمان فلن تبقَ لهذه القدسية باقية بل ستنتشر ممارسة الجنس بشكل عشوائي فاحش بدون حدود، يساعدها على ذلك وساوس الشيطان الذي مِن أولى اهتماماته تخريب المجتمعات البشرية، ألم يقسم لله بهذا الأمر (قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين)
– هل لهذا السبب يسمي الأستاذ بهاء الفتاة المتبرجة بفتاة الشيطان؟
– نعم يا عزيزتي..
– أفهم من هذا يا أستاذة بأن الجمال موجود في المرأة فمتى يتحول إلى تبرج؟!
– بإضافة أشياء تزيد من حدة الجمال فتحوله إلى فتنة بالنسبة للجنس الآخر وحتى فتنة لبعض النساء! هذا بالنسبة للوجه والكفين فهي زينة ظاهرة لم يحرم الله تعالى إظهارها لكنه حرم تغييرها بما يلفت الأنظار وحرم إظهار ما سواها من أجزاء الجسم الأخرى فالجمال بذلك لم يعد ضمن الحدود التي وضعها الخالق تعالى بل سيتحول إلى تبرج..
قالت مريم وقد شدّها الموضوع :
– إذن التبرج هو إظهار مفاتن المرأة بشكل ملفت للنظر كإضافة الاصباغ والألوان للوجه أو ما يعرف بالمكياج كذلك تلوين الأظافر ولبس الضيق والقصير والشفاف الذي يظهر ما تحته.

– بل حتى الجبة الضيقة التي تبرز حدود الجسم وترسمها رسمًا دقيقًا بعين الناظر إليها، والعباءة غير المحتشمة التي تظهر ما تحتها من ملابس ضيقة تعتبر تبرج، حجاب الرأس الذي يُظهر بعضًا من الشعر سواء من الامام أو الخلف أيضًا تبرج، لبس الكعب الذي يظهر صوت عالي في المشي وقد يغير من طريقة مشي المرأة بما يوقع في الفتنة، كذلك لبس المصوغات في اليد أو الساق بما يظهر أصواتًا وحركات جاذبة للانتباه (وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ)

– وهل ذكر الله تعالى التبرج بشكل صريح في القرآن الكريم يا أستاذة؟

– نعم حبيبتي.. يقول تعالى (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) وها أنتِ ترين معي بأنه تعالى يعد التبرج من صفات نساء الجاهلية!! بل الجاهلية الأولى!

فتبرج المرأة يا مريم هو ظاهرة قديمة ارجعها الله إلى عصر الجاهلية أي ما قبل الإسلام ونحن نرى أن الأمر عاد الآن بل أكثر من ذي قبل!

٧

سهرت مريم تفكر في كلام تسنيم عن حرمة التبرج والمكياج ثم تذكرت كلامها بأن بهاء يعتبر الفتاة المتبرجة هي من فتيات الشيطان، قالت وهي تدس وجهها بين طيات الوسادة : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!

ثم رددت مع نفسها : سأجرب أن أذهب غدًا إلى الجامعة بدون مكياج.. ولكن كيف سينظر لي الطلبة؟ وكذلك الأساتذة؟ هل سأكون صفراء اللون شاحبة البشرة!

ثم استرجعت كلام تسنيم كلمة كلمة حتى وصلت إلى الخطاب الإلهي (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) فأغمضت عينيها وهي تردد هذه الآية الكريمة حتى استسلمت لنومٍ عميق.

وفي الصباح وقبل أن تخرج مريم إلى الجامعة نظرت في المرآة فوجدت أن وجهها طبيعي جدًا وهو خالٍ من المكياج، وليس كما تصورت أو صوّر لها الشيطان بأنه سيكون غريب وشاحب!!

اتجهت نحو والدتها لتقبلها قبل الخروج كالعادة فمدت الوالدة يديها نحول وجه ابنتها وهي تردد :

–ما أجملكِ يا فتاتي.. لقد كبرتِ وأصبحتِ عروسًا!

تفاجأت مريم لهذه الكلمات فإن والدتها لم تكن تردد هذه العبارات من قبل، ولم يصدف أن قالت لها (ما أجملكِ) عندما كان وجهها يشعّ بالمكياج!

أما اليوم فهي تقول هذه الجملة وبكامل العفوية والثقة رغم أن ابنتها ولأول مرة تترك وجهها بدون أصباغ!!

تذكرت مريم وهي تغلق الباب خلفها كلام تسنيم ثم تساءلت مع نفسها :

هل فعلاً إن الفتاة عندما تكون بدون مكياج فإن هالة من النور الإلهي والقدسية والطهارة تحيط بوجهها وتجعلها تبدو كالملاك الطاهر؟!

نعم هذا ما قالته الأستاذة وهذا ما رأته مريم في عيون الطلبة بعد أن تخلت عن الجمال المصطنع من الاصباغ والألوان وقنعت بجمالها الطبيعي الذي وهبه لها خالقها.

دخل الأستاذ بهاء القاعة ولم يلتفت مباشرة إلى ما التفت إليه الطلاب..

كانت مريم تخشى أن ينظر إليها بهاء فيراها شاحبة اللون في حين أنها تتمنى أن تكون في عينه أجمل فتاة!

لذلك كانت تحاول أن تخفي وجهها خلف الأوراق والكتب التي كانت ترفعها بين لحظة وأخرى أمام وجهها!

وقبل انتهاء المحاضرة جذب انتباه بهاء عدم رؤيته لمريم فسأل عنها ليأتيه الجواب : إنها هناك يا أستاذ.

تفاجأ عندما رآها وهي تحاول جاهدةً أن تخفي عنه وجهها!

قال في نفسه : هل هي مستاءة مني إلى هذه الدرجة لأني لم ادعها تجالس زوجتي في ذلك اليوم؟

قرر أن يعتذر منها بعد أن طلبت منه تسنيم ذلك فناداها بإسمها مما أدى إلى ارتباكها أكثر، اتجهت نحو باب القاعة حيث يقف بهاء وما أن اقتربت منه حتى انتبه إلى خلو وجهها من المكياج فاستبشر خيراً وهو يشعر بداخله بأن هذا التغيير ما هو إلا تأثير زوجته في هذه الفتاة.

قال اخيراً :

– أرجو منكِ أخيتي أن تعذريني إن كنت أسأت إليكِ قبل يوم أمس.

– لا يا أستاذ.. الاستاذة تسنيم زوجتك قبل أن تكون استاذتي وصديقتي.

أراد بهاء أن يبارك لها تركها لمعصية التبرج لكنه خشى أن تفهمه مريم من باب الاهتمام بها وقد يذهب تفكيرها إلى أمور أخرى، كما أنه قد يكون كلام جريء لا يجوز أن يصدر من مؤمنٍ مثله!

قال وهو خافضًا بصره إلى الأرض :

– الحمد لله أنكِ تفهمتِ الأمر، أشكركِ كثيراً واستأذنكِ الآن فهذا كل ما أردت أن أخبركِ به.

ابتعد بهاء وشعرت مريم بأن هناك كلام آخر في جعبته كان يريد قوله!!

اتجه باحثًا عن زوجته ليخبرها بالمفاجأة قبل أن تراها بنفسها، فلقد كانت سعادته بهذا التغير الذي طرأ على مريم أكثر مما كان يتصور!!

٨

وفي إحدى الجلسات التي كانت تعقد بين تسنيم ومريم سألت الأخيرة استاذتها قائلة :
– هل الأمور التي صرتِ تعلميني إياها كان الأستاذ بهاء قد علمك إياها من قبل؟
ابتسمت تسنيم وقالت :
– أحمدُ الله أني أعرف هذهِ الأمور منذ كنت صغيرة فلقد سعى والدينا رحمهما الله جاهدين على أن يعرفانا – أنا وأختي – كل صغيرة وكبيرة في ديننا الحبيب.
– وهل والداكِ متوفيان يا أستاذة؟
– نعم.. أبي توفي أثر حادث مؤسف ووالدتي التحقت به بعد صراع بينها وبين مرضٍ عضال.
– رحمهما الله تعالى، توقعت أن الأستاذ بهاء هو السبب في التزامكِ بالدين!
سألتها تسنيم بإستغراب :
– لماذا تُصرين على أنه السبب في ذلك؟
صمتت مريم وتلعثمت في الرد فلقد كادت تكشف الحقيقة لتسنيم..
قالت بحذر :
– وهل التزامكِ بتعاليم الله تعالى هو السبب في اختياره لكِ من دون النساء؟!
– نعم حبيبتي بالضبط..
ثم استطردت تسنيم في الكلام قائلة :
– لقد جمعتني ببهاء أمور كثيرة متشابهة فيما بيننا..
مثل حب الدراسة وحب الثقافة والتعلم وحب الالتزام الديني و..
– ولكنكِ، لاتستطيعين الإنجاب.. صحيح ؟
شعرت تسنيم ببعض الألم من هذا السؤال المفاجئ والقاسي.. فاستجمعت قواها وهي تقول:
– نعم للأسف، ولكننا أقسمنا على الإمام المهدي (عجل الله فرجه) أن يتوسط لنا عند الله تعالى في قضاء هذه الحاجة وكلنا أمل أن يستجيب..
سألت مريم بدهشة :
– ماذا؟ أقسمتما على الإمام المهدي؟!!

– نعم أوليس هو إمام زماننا..؟
– صحيح ولكنه غائب وأنا لا أشعر بوجوده أصلا!!
– هذه ليست مشكلتك وحدكِ يا مريم بل مشكلة أغلب المجتمع للأسف الشديد.
– ثم إنني أخاف من فكرة ظهوره بل حتى من سماع إسمه ..
أكملت مريم بتردد :
أخبرتني والدتي بأن الإمام المهدي عندما يظهر سيقتل كل من يقف في وجهه أو لا يصدقه..
ثم وبعد أن يرجع سيفه إلى غمدهِ تكون القيامة قد حلّت !
تألمت تسنيم على هذه الكلمات التي تسمعها من طالبتها ثم قالت :
– اسمعي يا مريم.. هذا هو الخطأ الذي وقع فيه بُسطاء المسلمين فرغم إيمانهم بظهور الإمام المهدي (عليه السلام) في اليوم الموعود ولكن منهم من يتمنى أن لا يأتي ذلك اليوم وهم أحياء لأنهم ببساطة يتوقعون يوم الظهور يعني حلول يوم القيامة!!!
بل أن بعضهم يحاولون إقناع أنفسهم بأن يوم الظهور هو يوم بعيد جداً وللأسف فإن الناس استمروا على اعتقاداتهم الخاطئة، فلا الإمام المهدي هو إنسان مخيف كما يتصورون ولا يومهم بعيد جداً كما يتخيلون!!
أما عن بعد اليوم الموعود فكيف يكون كذلك ونحن من أهل آخر الزمان؟
عندما أصف زماننا بأنه آخر الزمان فلا يعني هذا بأن يوم القيامة قريب جداً، إذ إننا نقرأ في القرآن الكريم (اقتربت الساعة وانشق القمر) منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة وإلى الآن لم تحل الساعة!!
لذلك أنا عندما أقول نحن في آخر الزمان فأقصد إن الناس مثلا في زمن الإمام علي عليه السلام أو أولاده المعصومين عليهم السلام كانوا يعرفون أن بعد إمامهم وقائدهم هذا هناك إمام آخر وهكذا إلى أن وصل الدور الينا نحن الشيعة في زمن الإمام المهدي فكيف لا نصدق بأننا نعيش آخر الزمان ونحن نعرف بأن إمامنا المهدي هو الإمام الثاني عشر فهو إذن خاتم الاوصياء وآخر الائمة عليهم السلام؟!
فعلينا أن نتوقع ظهوره الشريف في أي سنة خاصة أن كل شيء في هذا الوجود يشير إلى قرب ذلك اليوم يا مريم كما أن مصاديق آخر الزمان قد تحقق أغلبها كما ترين.
– ولكن ماذا تقصدين بمصاديق آخر الزمان؟
– أقصد بأن الروايات الشريفة التي وردت عن الرسول وأهل بيته عليهم السلام قد تحدث عن عدة علامات وظواهر تحدث قبل يوم الظهور بفترة قليلة كإنتشار الأمراض والزلازل والفيضانات، وكذلك انتشار الفساد بكل أنواعه وطغيان الفقر والمجاعة وظلم الحكومات والسلاطين وانتشار الجور وفشل هذه الحكومات في تخليص الشعوب من الدمار الذي يحل

بها، عند ذاك يبدأ الناس بالبحث عن المنقذ والمخلص الذي ينشر في هذه الأرض الأمان والسلام والعدل والمساواة بعد انتشار الحروب والظلم والدمار..
وها أنتِ ترين يا مريم بأم عينك ما يحدث بالعالم بأسره من حوادث سواء طبيعية كانتشار الوباء والزلازل أو الحوادث التي من صنع الإنسان كالحروب والظلم والجور والفساد، فهل تتفقين معي إننا كلما تقدمنا عامًا آخر فإن هذه الأمور تزداد شدتها ولا تقل ابدا؟!!
طأطأت مريم رأسها وهي تقول :
– نعم وخاصة الأمراض والفساد الأخلاقي والحروب ولكن..
– لكن ماذا ياحبيبتي؟
– الإمام المهدي عندما يظهر سيشن الحرب أيضًا!!
– نعم هذا صحيح لكنها حربًا ضد الظالمين والمعاندين وليست ضد الأبرياء العزل ياصاحبتي! ولو كانت حربًا ضد الناس جميعهم فسيكون إمامنا إرهابي وحاشاه من ذلك، فهل يمكن أن يكون حفيد نبي الرحمة وآخر أوصيائه إرهابيًا سفاكًا للدماء ومثيرًا للحروب؟!! إنها حرب سيخوضها الإمام " عليه السلام" بجيشه وانصاره ضد أهل الباطل الذين نشروا الفساد والظلم، وستدوم تلك الحرب ثمانية أو تسعة أشهر ليس أكثر!
وبعد ذلك وعندما يرى الناس قوة الإمام المهدي عليه السلام والدعم الإلهي الذي يحضى به وخاصة نزول عيسى المسيح عليه السلام وتعرف النصارى عليه فهذا سيكون من أقوى الأدلة التي تدعم قضية الإمام
(عليه صلوات ربي) حينها سيقنع الناس بحكومته
وستنضوي بقيه الحكومات تحت حكومته العالمية العادلة.
– وبعد ذلك؟
بعدها سيبدأ الإمام روحي فداه بتأسيس تلك الدولة على أساس الرحمة والعدل والأمان الذي سيعم جميع البقاع.
– وهل سيكون الإمام المهدي القائد والرئيس الأول لكل هذا العالم المترامي الأطراف؟
– نعم يا مريم وهذه (الحكومة الإلهية الموعودة)
والتي بشرت بها جميع الكتب السماوية قد وعد الله بها
عباده الصالحين بالقول :
(وكتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون)
فهو (وعد الله) في الزبور وبقية الكتب السماوية بأن الله في نهاية المطاف سيرث الأرض لعباده الصالحين وحكومة الإمام المهدي عليه السلام هي المصداق الحقيقي لذلك الوعد الإلهي كما أخبرنا رسول الله وأهل بيته عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين.

٩

لم تستطع مريم النوم في تلك الليلة وهي تفكر بكلام تسنيم فقررت الإتصال بها لعل هناك أجوبة لأسئلتها المحيرة..

– السلام عليكم أستاذة.. آسفة إن كان الوقت متأخر لكن لدي بعض الأسئلة إن أمكن!

– نعم حبيبتي تفضلي..

– كم سنة سيحكم الإمام المهدي عليه السلام؟ وكيف ستكون مواصفات الدولة؟

– بخصوص الشطر الأول من السؤال فالروايات تذكر سبع سنوات أو تسعة وكل سنة تُقدّر بعشرين عامًا.. وهذا يعني بأنه الأيام ستطول وبالتالي السنوات ستطول أيضًا لينعم الجميع بتلك الجنة الأرضية.

– لم أفهم كلامكِ الأخير أستاذة!

– نعم حبيبتي.. تذكر الروايات الشريفة بأن دولة الإمام روحي فداه ستكون جنة الله على الأرض.. وهذا هو الجواب على الشطر الثاني من سؤالكِ.

– ماذا؟ جنة الله!

– نعم وسأحضر لكِ غدًا بإذن الله تعالى كتاب (الإمام المهدي من المهد إلى الظهور) لتطلعي بنفسكِ على أوصاف تلك الجنة الموعودة.

– حسنًا أستاذة سأنتظر يوم غد على أحر من الجمر، تصبحين على خير.

– وأنتِ من أهل الخير غاليتي.

وضعت تسنيم الهاتف جانبًا فسألها زوجها :

– ماذا تريد مريم مجددًا؟

– إنها بحاجة إلى بعض المعلومات عن القضية المهدوية..

ثم صارت تسنيم تسرد لزوجها ما يدور من أحاديث بينها وبين مريم، وكانت تحاول أن تحبب إليه تلك الفتاة فهي لا تفتأ تذكر بين جملةٍ وأخرى هذه العبارات..

(انها كالطفلة في براءتها، كم هي مسكينة بجهلها، إنها بحاجة إلى مرشد ومعلم، إنها طيبة القلب)

وأخيراً تكلم بهاء قائلا :

– ألا تخشين أن تعجبني مريم هذه بسبب كثرة مديحكِ ووصفكِ لها أمامي؟!

كانت كلمات بهاء هذه كافية بأن تجعل تسنيم بحالة من الحيرة والشرود الذهني المفاجئ!

مرر كفه أمام وجهها وهو يقول : إحم إحم.. أين سرح فكركِ مولاتي؟!

انتبهت تسنيم على حركة كفه وكلماته هذه، ونظرت إليه وقد ترقرقت الدموع في عينيها فجعلتها تبدو أجمل وأروع في عينيه.. قال بتعجب :

– أتبكين؟!

مسحت دموعها بحركة سريعة ثم قالت :
– لا أجد أجمل وأطيب وأروع من مريم حتى أخطبها لك أيها الغالي.
اتسعت عينا بهاء وهو يحدق بها قائلا :
– ما بكِ حبيبتي؟ أنا سألتكِ ذلك السؤال مازحًا يشهد الله.
قالت تسنيم وهي تمسك بيده وقد شعر بارتجاف أناملها الباردة :
– إسمع يا بهاء.. سواء كنت مازحًا أو جادًا فيما قلته فإن الأمر عندي سيّان، فكل الذي أتمناه أن تكون هناك امرأة تعجبك لأخطبها لك بنفسي!
صرخ بهاء في وجهها وقد استشاط غضبًا : إن سمعت هذا الكلام مرةً أخرى فسيكون الخصام بيننا طويلا.. وقد لا أسامحكِ عليه أبدا.

١٠

جاءت تسنيم بالكتاب وأرادت أن تبقى وقت أطول مع طالبتها لكن بهاء كان بالمرصاد هذه المرة أيضًا عندما طلب من زوجته أن تهيأ نفسها للخروج مبكرًا من الجامعة لأمرٍ طارئ!
صارت مريم تشعر بثقل وجودها في حياة الزوجين فقررت أن تسحب نفسها من حياتهما تدريجيًا وبكل هدوء دون ترك أي ضجيج أو أثر!
في المنزل قضت ساعات طويلة مع ذلك الكتاب المشوق وهي تقرأ معلومات لأول مرة تعرفها عن إمام زمانها :
يعتبر عصر الإمام المهدي(عجل الله فرجه الشريف) بعد ظهوره وقيامه من أفضل عصور الكرة الأرضية منذ خلق الله الأرض، أو منذ خلق آدم(عليه السلام).. وعصره هو عصر العلم والنور، لا العصور التي نحن نعيشها اليوم، والتي هي عصور ظلمات الجهل والفقر، والانحراف والفجائع، والجور والضلالة..
وعند قيام الإمام المهدي(عجل الله فرجه الشريف) يرحل الفقر عن المجتمع البشري ويزول الحرمان، وتنحل العقد النفسية، وتنقلب الأحزان أفراحاً، وينقلب جحيم الحياة نعيماً، والذبول المستولي على الوجوه يتبدل طراوة ونضارة، والخوف يرتفع والأمان يسود العالم والعدالة تخيم على رؤوس البشر، والظلم يتلاشى، فلا ترى ظالماً ولا مظلوماً، والمسلمون تتحقق أمنياتهم، والسلام يشمل الكرة الأرضية والاسلام ينتشر في كل بقا ع الأرض.. كل ذلك ببركات نهضة الإمام المهدي (عليه السلام) وقيامه وانجازاته، وخطواته الاصلاحية، ومشاريعه العمرانية، وتعاليمه القيمة، وتطبيقه للقوانين الالهية، وعلى الإجمال فإن الإمام

(عجل الله فرجه الشريف) يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن تملأ ظلماً وجوراً.. والشق الثاني من الجملة هو علة للشق الأول كما لا يخفى.
وإلى ذلك، يُستفاد من الأحاديث الشريفة الكثيرة أن تطوراً عظيماً وتبدلاً كبيراً سوف يحدث في المجتمعات كلها – في أرجاء الكرة الأرضية – وسوف تتغير صورة الحياة إلى صور أخرى رائعة، في جميع مظاهرها ومرافقها.
وسيشمل التطور والازدهار جميع ميادين الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتربوية.. وغاية ما في القول أن عصر الإمام الحجة هو من أزهى وأجمل العصور التي عرفتها البشرية .
عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي صلى الله عليه وآله قال: " تنعم أمتي في زمن المهدي نعمة لم يتنعموا مثلها قط، ترسل السماء عليهم مدرارا، ولا تدع الأرض شيئا من نباتها إلا أخرجته".

١١

تكررت اللقاءات بين تسنيم ومريم وكانت الأخيرة تحاول التهرب من الحديث عن الأستاذ بهاء بعد أن حفر حبهُ في قلبها اخدودًا عميقًا تحاول طمره بصعوبة..
وفي إحدى الجلسات خاطبت تسنيم رفيقتها :
– هلا أخبرتِني عن علاقتكِ بإمامنا الحجة روحي فداه هل ما زلتِ تخشين سماع اسمه المبارك؟!
– الإمام الحجة !
– نعم عزيزتي.. حسنٌ سأستبدل صيغة السؤال : هل أكملتِ قراءة الكتاب المهدوي الذي جلبته لكِ قبل فترة؟!
– لا.. قرأت منه بعض الفصول.
– إقرأيه بالكامل لأحضر لكِ غيره وبمرور الوقت ستجدين نفسكِ عاشقة لإمام زمانكِ متيمةً بحبه ومنتظرةً لظهوره الشريف بكل شوق ولهفة.
– ولكن لماذا تصرين يا أستاذة على أن أحبه وأنتظره ؟ هل أمره مهم لهذه الدرجة؟!
– ولكن ألا تتمنين أن يكون لكِ حبيب تشتاقين إليه وتنادين بإسمه صباحًا ومساءا؟!
ارتبكت مريم قليلا ثم تساءلت :
– ولكن ما شأن الحبيب بالإمام الحجة المهدي يا أستاذة؟!
– كيف ما شأنه؟ قولي بربكِ ألا تتمنين ذلك؟!
– نعم.. نعم أتمنى!

– إذن أنا أريد أن أعرفكِ على أروع إنسان في هذا الوجود فقد وصفه رسول الله بأنه طاووس أهل الجنة لحسن طلعته وبهاءه، إنه بقية العترة الطاهرة الذين قال الله فيهم (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)

– وهل واجبٌ عليَّ محبته ومودته؟!

– كيف لا وقد جاء في محكم كتابه الكريم (قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربى) و القربى هم أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وخاتمهم الحجة المنتظر روحي فداه هو من تبقى منهم على وجه الأرض حيٌّ يرزق فكيف لا يهمكِ مودته ومحبته؟!

– ولكن هناك الكثير ممن يشككون في ولادة الإمام المهدي .. صحيح يا أستاذة ؟

– نعم صحيح، وهـؤلاء ليسوا من التابعين لمذهب أهل البيت عليهم السلام بل هم من المذاهب الإسلامية الأخرى وهم لا ينكرون حقيقة ظهوره ولكنهم ينكرون حقيقة وجوده الآن! فهم يقولون بأنه سيولد في آخر الزمان من ذرية الزهراء عليها السلام.

سألت مريم بدهشة :

هذا يعني بأنهم مثلنا يعترفون بظهور منقذ ومخلص عالمي يوحد الدنيا تحت رايته وبأنه من ذرية الزهراء عليها السلام وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام؟

– نعم حبيبتي بالضبط فلا يوجد مسلم ينكر القضية المهدوية لأنها أكثر القضايا التي وردت فيها أحاديث شريفة على لسان رسول الله محمد صلى الله عليه وآله.

ومن هذه الأحاديث ما ذكرها أحمد بن حنبل في مسنده عن أبي سعيد الخدري قال رسول الله (تملأ الأرض جوراً وظلما فيخرج رجل من عترتي يملك سبعًا أو تسعًا فيملأ الأرض قسطًا وعدلا).

وعن عبد الله بن مسعود قال رسول الله (لا تذهب أو لا تنقضي الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه إسمي) أخرجه أبو داوود في سننه.

وعن أبي هريرة قال رسول الله (لو لم يبقَ من الدنيا إلا ليلة لملك فيها رجل من أهل بيت النبي) أخرجه بن حماد في صحيحه.

وحتى المذهب الوهابي الذي هو من أكثر المذاهب اختلافًا مع المذهب الشيعي نرى قادته يؤكدون قضية الظهور مع اختلافات لا تقدح بأصل القضية، فهذا بن تيمية المعروف عندهم بشيخ الإسلام في كتابه منهاج السنة يقول عن الإمام المهدي عليه السلام (وينتظر المسلمون خروجه من أهل بيت النبوة ويملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا).

أما ابن القيم الجوزي في كتابه إغاثة اللهفان فيقول :

(وإنه يكون من أهل البيت من ذرية فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله..) .

فهنا يا مريم نعرف بأن الجميع متفق على ظهور المهدي من ذرية الزهراء عليها السلام في آخر الزمان، بل لو تطلعنا الإنجيل والزبور والتوراة وباقي الكتب السماوية لوجدناها جميعًا

تذكر المنقذ بألفاظ عديدة ومسميات مختلفة فالبعض يسميه (أوقديمو) وبعضها (الموعود) وبعضها (ابن الإنسان) وغيرها، وجميع هذه الأسماء والالقاب تشير إلى شخص واحد سيحل الأمن والأمان بقدومه الميمون والمبارك.

– وما هي صفاته أستاذتي؟ هل صحيح إنه شديد وصارم سيقتل حتى العلماء إن وقفوا في وجهه؟ حتى أن الناس من شدة قسوته سيقولون (لو كان ابن فاطمة لرحم)!!

ابتسمت تسنيم وهي تقول بدهشة :

– كيف لا تكوني خائفة من الإمام الحجة روحي فداه وقد تجمعت في داخلكِ كل هذه الأفكار والأحاديث عن قسوته وشدته!!

– ولكن أليست هذه الأحاديث صحيحة؟

– أنا لا أنكر صحتها يا مريم لكن الذي يجب أن تعرفيه هو أن لها مفهومًا غير الذي تتصوريه..

فشدته هذه كما ذكرت لكِ سابقًا هي مع أعداءه ممن سيقفون في وجه تأسيس دولة العدل الإلهي..

أما باقي صفاته فأستطيع أن أوضح لكِ بعضًا مما وردت فيها أحاديث شريفة وروايات موثوقة :

في البدء يجب أن تعلمي إنه روحي فداه إنسان طبيعي يشبهنا في الخلقة إلى الدرجة التي قد نراه فيها ولا نعرفه! بل قد نتحدث إليه في موقف من المواقف وفي مكان ما دون أن نعلم بأنه إمامنا ودون أن نشعر تجاهه بالريبة والخوف!

روى الصدوق في كتابه (كمال الدين) والطوسي في كتابه (الغيبة) عن السفير الثاني محمد بن عثمان العمري، قال : " والله إن صاحب هذا الأمر يحضر الموسم كل سنة – يقصد الحج – فيرى الناس ويعرفهم، ويرونه ولا يعرفونه" .

وروى الصدوق عن عبيد بن زرارة قال : سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول : " يفقد الناس إمامهم، فيشهد الموسم فيراهم ولا يرونه ".

وعن الشيخ الصدوق أيضا عن سدير عن الإمام الصادق عليه السلام قال : " فما تنكر هذه الأمة أن يكون الله عز وجل يفعل بحجته ما فعل بيوسف : أن يكون يسير فيما بينهم ويمشي في اسواقهم ويطأ بسطهم وهم لا يعرفونه.. "

وعن الإمام الصادق عليه السلام :" في القائم سُنّة من موسى، وسُنة من يوسف، وسنة من محمد، فأما سنة موسى فخائف يترقب، وأما سنة يوسف فإن إخوته كانوا يبايعونه ويخاطبونه ولا يعرفونه.. "

وروى الكليني في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال :

(فما تنكر هذه الأمة أن يفعل الله بحجته كما فعل بيوسف : أن يمشي في اسواقهم ويطأ بسطهم حتى يأذن الله في ذلك كما أذن ليوسف، قالوا أإنك لأنت يوسف قال أنا يوسف).
قال المازندراني فى شرح هذه الرواية : وقد روي أنه بعد ظهور الإمام المهدي يقول كثير من الناس : رأيناه كثيراً ..!!
كانت مريم تستمع لكل هذه المعلومات باستغراب ودهشة وعندما قررت تسنيم إنهاء الحديث توسلت إليها مريم أن تكمل الحديث عن صفاتٍ أخرى!
ابتسمت تسنيم وارتاحت لطلبها ثم أكملت :
ومن صفات الإمام المهدي أرواحنا فداه والتي ذكرتها روايات الرسول وأهل البيت عليهم صلوات الله هي هذه الصفات التي تموج بالغربة والوحدة : الطريد.. الشريد.. الوحيد
يروي صاحب دلائل الإمامة عن داوود المرقي قال : سألت أبا الحسن عليه السلام عن صاحب هذا الأمر فقال : هو الطريد الشريد الفريد الوحيد..!
وروى الكليني في الكافي عن الإمام الرضا عليه السلام في حديث طويل، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : بأبي ابن خيرة الإماء هو الطريد الشريد.
وروى الصدوق عن أصبغ بن نباتة قال : سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول : صاحب هذا الأمر الشريد الطريد الفريد الوحيد.
قال المازندراني في شرح أصول الكافي :
الشريد : مِن شرد فلانًا إذا نفر عن الخلق وذهب في الأرض وسار في البلاد خوفًا وجزعًا، فهو شارد وشريد.
روى الراوندي عن الإمام الصادق عليه السلام قال : " إن في صاحب هذا الأمر سننًا من الأنبياء سنة من نوح وهي طول عمره وظهور دولته وبسط يده في هلاك أعدائه، وسنة من موسى كما كان خائف يترقب .."
وحسب هذه الرواية فسيكون خوف الإمام المهدي عليه السلام ليس من باب عدم الشجاعة..! بل من باب تتبع الحكومات الظالمة له وواجبه وتكليفه الشرعي بأن يستتر منهم ويحفظ نفسه من الظهور أمامهم أو أن يتصرف أمامهم بما يوحي بأنه الإمام الموعود .. كما كان موسى عليه السلام تمامًا عندما هرب من بطش فرعون فظل خائفًا يترقب خشية أن يتعرف عليه أحد!
وحسب الظاهر من هذه الروايات والأحاديث الشريفة والله العالم فإن الإمام المهدي عليه السلام ليس له زوجة ولا أولاد بدلالة كلمة – وحيد – التي ذكرتها هذه الأحاديث، بل ليس له مكان ثابت يأوي إليه ويسكن فيه ويستقر به طيلة هذه السنين!
يقول الشيخ المفيد في " المسائل العشر في الغيبة " إشارة لهذا المعنى :

(وكم من ولي لله تعالى يقطع الأرض بعبادة ربه تعالى والتفرد عن الظالمين بعمله، ونأى بذلك عن دار الظالمين، وتبعّد بدينه عن محل الفاسقين، لا يعرف أحد من الخلق له مكانًا..)!
ومما يؤكد هذه الأوصاف لصاحب الأمر هو قوله عجل الله فرجه في رسالته للشيخ المفيد في زمن الغيبة الصغرى والتي وردت في كتاب الاحتجاج، حيث يقول أرواحنا فداه :
(نحن وإن كنا نائين بمكاننا النائي عن مساكن الظالمين.. فإنا نحيط علمًا بأنبائكم ولا يعزب عنا شيء من أخباركم).

١٢

في قاعة المحاضرات وبعد أن أنهى بهاء محاضرته صار الطلاب يسألونه بعض الأسئلة الدينية لمعرفتهم بثقافته والتزامه فتحينت مريم الفرصة لمعرفة حقيقة إدّعاء تسنيم من أن بهاء يشاركها نفس الحب والتعلق بالإمام الحجة عليه السلام فسألت بشيء من الارتباك :
– هل لك أن تكلمنا عن رحمة الإمام المهدي المنتظر وتواضعه مع بقية الناس؟!
تفاجأ بهاء من سؤالها فلم يكن يتوقع منها أي مشاركة في طرح الأسئلة مع الطلاب خاصة أنها في الفترة الأخيرة تحاول تجنبه كثيرًا..!
قرر أن يكون طبيعيًا هو الآخر فقال وهو يوزّع نظراته بين الجميع :
إعلموا يا أبنائي بأن إمامنا المهدي عليه السلام أشفق علينا من آبائنا وأمهاتنا!
عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام وهو يصف أحوال الإمام المهدي عليه السلام :
(يَكُونُ أَوْلَى النَّاسِ مِنْهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ، وَأَشْفَقَ عَلَيْهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ، وَيَكُونُ أَشَدَّ النَّاسِ تَوَاضُعاً لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَيَكُونُ آخَذَ النَّاسِ بِمَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ وَأَكَفَّ النَّاسِ عَمَّا يَنْهَى عَنْهُ، وَيَكُونُ دُعَاؤُهُ مُسْتَجَاباً حَتَّى لَوْ أَنَّهُ دَعَا عَلَى صَخْرَةٍ لانْشَقَّتْ نِصْفَيْنِ).
تجدون هذا الحديث في :
(الخصال ، بحار الأنوار، إثبات الهداة بالنصوص و المعجزات، معاني الأخبار، عيون أخبار الرضا عليه السلام)
فما أحوجنا اليوم إلى حاكم تكون فيه كل هذه الصفات؟
١–أولى الناس.. تعني أحق الناس بالحكم (الرجل المناسب في المكان المناسب)
٢–أشفق عليهم من آبائهم وأمهاتهم.. تعني أن الرحمة والشفقة والرأفة التي يحملها قلب هذا الإنسان لا تعادلها أي رحمة بشرية على الإطلاق، حتى إنه يشفق على رعاياه أكثر مما تشفق عليهم آبائهم و أمهاتهم!

وهذا يعني أنه ينظر لجميع الناس على أنهم أبنائه، وبأنه الأب الرحيم والقائد العظيم في الوقت نفسه .

٣- ويكون أشد الناس تواضعًا لله عز وجل.. وهذه هي العبارة التي تجعل قلوبنا مطمئنة بإن قائدنا القادم لن يكون كبقية القادة!! فلن يكون متكبراً ولن تغره السلطة والجاه والأموال كما يحصل مع الجبابرة اليوم ممن يحكمون الأرض بالغطرسة والاستكبار!

بل سيكون تواضعه مع الله مصدراً لتواضعه مع جميع عباد الله فهو يعلم أن (الخلق عيال الله) كما في الأحاديث الشريفة عن آبائه وأجداده عليهم السلام، وكيف لا يحمل كل هذه الأخلاق الكاملة وهو حفيد رسول الله الذي خاطبه الله في كتابه بقوله (وإنك لعلى خلقٍ عظيم)؟!

٤- ويكون آخذ الناس بما أمرهم به، وأكف الناس عما ينهى عنه.. هذه الصفة التي فقدها الكثير ممن يسمون أنفسهم رجال الدين في يومنا هذا !

هذه الصفة التي بسبب فقدها اليوم تشوهت صورة الدين! هذه الصفة التي بسبب عدم وجودها في الساحة السياسية صار الدين منبوذًا لا يحبه أكثر الناس؟

المهدي عليه السلام سيكون رجل دين سياسي ملتزم بالدين هو أولا.. عندما يصدر أمراً يكون هو أول من يلتزم به وعندما ينهى عن فعل يكون هو أول من يتركه.. سنرى الدين يمشي على الأرض بهيئة بشر!

لن يكون المهدي عليه السلام متساهلا مع نفسه ومتشدداً مع الآخرين!!!

بل لن يكون متشدداً على الإطلاق! سيخاطب الناس بالتي هي أحسن وسيكون تشدده فقط على المعاندين مثيري الفتن والضغائن بين الناس، أما بقية البشر فسيعاملهم باللين والعطف والرحمة ممتثلا لقوله تعالى (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) وسيكون هو قدوتهم في تنفيذ الأوامر الإلهية.

٥- ويكون دعاءه مستجاباً حتى أنه لو دعا على صخرة لانشقت نصفين .. وكيف لا يكون كذلك وهو وجه الله في الأرض؟

وقد ورد في الحديث القدسي الذي ذكرته مصادر عديدة منها إرشاد القلوب وعدة الداعي ونقله الكثير من علمائنا الثقاة (يا عبدي أطعني تكن مثلي تقل للشيء كن فيكون) هذا بالنسبة لأي إنسان مؤمن مطيع لله تعالى يهبه الله سرعة الإجابة .. فكيف إذا كان ذلك الإنسان هو بقية الله في أرضه؟!

تشجعت مريم على طرح سؤال آخر لما رأت من أريحية لدى بهاء في الإجابة على سؤالها الأول فقالت :

- سؤال أخير أستاذ : هل المرأة المثالية في رأيك هي من ترتدي العباءة الزينبية أم ممكن أن تكون مثالية من دونها ؟!

تمتم مع نفسه : أظنها تقصد زوجتي بوصفها المرأة المثالية باعتبارها ترتدي العباءة في الجامعة ورغم ذلك سأجيب عن السؤال ليستفد الجميع..

– إن أعطيتِ العباءة حقها بعدم وضع المكياج ولبس الاكسسوارات والبنطال البارز من تحتها وعدم توزيع النظرات والضحكات بين هذا وذاك .. حينها ستكونين فعلا إمرأة مثالية ليس في نظرنا نحن البشر العاديين بل في نظر السيدة الزهراء عليها السلام ونظر مولانا الإمام الحجة عليه السلام .

أما إن حدث العكس فعليكِ تدارك الأمر قبل فوات الأوان – إذ لا تدري نفس أين ومتى تموت – فهل السيدة فاطمة ترضى أن تجمعي عباءتها مع وجه مصبوغ بالألوان وأيادي ممتلئة بالاكسسوارات وأظافر طويلة وملونة تجذب أنظار النساء قبل الرجال؟!

وكأنكِ تقولين لمن حولكِ : لو أنني أستطيع خلع العباءة لفعلت! لكن لا يهم فلقد عوضتكم بإظهار مفاتن عيوني وشفاهي وخدودي بعد أن زينتها لكم بأجمل الألوان ، كما وزينتُ يدي وأظافري، وارتديت البنطال الضيق تحت عباءتي المفتوحة لكم.. تمتعوا بالنظر حتى تشبعوا يا شباب ورجال مجتمعي!!

تفاجأت مريم من هذا الكلام وهذه النظرة الثاقبة تجاه الفتيات اللواتي يجمعن العباءة مع المكياج وصارت تلملم أطراف ثيابها وتمنت في تلك اللحظة لو أنها ارتدت العباءة حال تركها للمكياج ليكون حجابها في أكمل وأبهى صورة.

١٣

قالت تسنيم وهي تستلقي على سرير النوم بعد يوم شاق وطويل :

– لقد اخذتنا الحياة كثيراً وشغلتنا عن التمهيد لصاحب الزمان..

قال بهاء باستغراب :

– ماذا تقصدين؟

– لقد كنا ننتظر اطفالا يملئون حياتنا وفي نفس الوقت نربيهم تربية مهدوية خاصة تمهيداً لصاحب الطلعة البهية، ولما لم يرزقنا الله أي طفل لحد الآن فالأفضل أن نبحث عن التمهيد بأنفسنا..

– أهاا.. أكملي!

– ما رأيك أن نعمل على نشر القضية المهدوية من خلال المواقع الإلكترونية ؟ إلى متى نبقى غارقين في واجباتنا الجامعية فقط!

– لكننا نتحدث مع طلابنا عن إمام زماننا كلما سنحت الفرصة.. ألا يعتبر ذلك تمهيداً؟!
– وما الضير أن نتحدث مع العالم بأجمعه عنه روحي فداه ؟ لماذا لا نستغل فرصة التطور التكنلوجي في التمهيد لإمام زماننا وقد أصبح العالم عبارة عن قرية صغيرة يمكن أن يصل صوتك فيها إلى الآف بل ملايين البشر في نفس اللحظة!
هزّ بهاء رأسه وقد أعجبته الفكرة :
– فعلا يا غاليتي جبر الله خاطركِ كما تحاولين جبر خاطر مولانا الحجة روحي فداه.
ابتسمت تسنيم وهي تقول :
– هل تعلم من وضع هذه الفكرة في بالي؟
– من؟
– مريم..
– ولكن ماذا تقولين؟
– نعم صدقني، فلقد اقترحت علي ذلك بعد أن رأت أن محاضراتي المهدوية معها وكذلك محاضراتك مع طلابك لها تأثيرها الخاص في قلبها.
– جميل جداً، أوصلي لها سلامي وشكري على هذا الاقتراح، والآن هل يمكن أن نكتفي بهذا القدر من الحديث بهذا الموضوع؟
– آه يا بهاء لو أعلم ما الذي يضايقك من هذه الفتاة؟ كنت متحمساً جداً للموضوع وما أن عرفتَ أنه من اقتراحها حتى أغلقت الموضوع على حين غرة!
لم يحر جواباً على سؤالها فهو نفسه لا يدري لماذا كل هذا الحنق على مريم!
في صباح اليوم التالي أخبرت تسنيم صديقتها وطالبتها مريم عن بدءها بتنفيذ ذاك المقترح كما أوصلت لها سلام بهاء قائلة :
– لقد طلب مني أن أوصل لكِ سلامه وشكره الجزيل لأنكِ كنتِ السبب في انقداح هذه الفكرة في بالي..
قالت مريم بخجل وارتباك :
– هل فعلاً طلب منكِ أنت تشكريني بالنيابة عنه؟
– نعم صدقيني.
صمتت مريم ولاحت على مُحيّاها علامات الذهول والشرود..
– مريم.. ما بكِ عزيزتي؟
– أوه.. لا شيء.
– كيف لا شيء؟! لقد تغيرت ملامحكِ وشرد ذهنكِ بعيداً..
وهنا استجمعت مريم قواها لتخبر تسنيم عن بعض ما يدور في خلدها..
– إسمعي يا أستاذة.. لا أعرف لماذا اشعر بأن الأستاذ بهاء يكرهني ولا يطيق رؤيتي!

– لا.. لا! لماذا تقولين هذا يا عزيزتي ؟!

– أظن أنه يريد أن يبعدنا عن بعضنا بأي طريقة..

– صدقيني مجرد وساوس ويجب أنت تبعديها عن رأسكِ لأن بهاء بريء من هذهِ التهمة!

في هذه الاثناء سمعت الإمرأتان وقع أقدام تقترب من الغرفة، نهضت مريم لترحل فلعل القادم بهاء، وفعلاً كما توقعت..

دخل بهاء وألقى السلام فاستأذنت مريم لكن بهاء استوقفها وهو يقول :

– عفوا أخت مريم أحببت أن أشكركِ على..

قاطعته مريم بارتباك :

– الشكر لله يا أستاذ، أدعو من الله أن توفقان في مشوراكما الجديد مع التمهيد للقضية المهدوية وأتمنى لو كنت أملك ثقافتكما لساعدتكما في النشر الإلكتروني.

قالت تسنيم وهي تشد على يدها :

– لكنكِ تملكين خبرة في التصاميم صحيح؟

– نعم الحمد لله

– حسنٌ جداً سنعتمد عليكِ في تصميم الفيديوهات والمقاطع المهدوية المؤثرة.. ماذا تقولين؟!

طأطأت رأسها وهي تقول بفرحة خفية :

– ستجدانني بخدمتكما وخدمة مولاي الحجة بن الحسن عجل الله فرجه الشريف.

١٤

ما رأيك يا بهاء أن نترجم شكرنا لمريم عن طريق دعوتها لوجبة غداء في أحد المطاعم؟!
هكذا تساءلت تسنيم وهي تنظر بشيء من التوسل إلى عيني زوجها، فجاءها الجواب :
– حسنٌ، لمِ لا؟!
تفاجأت مريم وأخفت ارتباكها بالقول :
– أظن أنني لا استطيع يا أستاذة فإن الوالدة في انتظاري الآن..
مدت تسنيم يدها إلى الهاتف وقدمته لمريم قائلة :
– خذي.. اتصلي بها وأخبريها بأنكِ معي.. هيا ماذا تنتظري؟!
بعد نصف ساعة كان الثلاثة في أرقى مطعم في المدينة..
وبينما كانوا ينتظرون الطعام سأل بهاء الضيفة قائلا :
– هل والدكِ على قيد الحياة؟
فجاءه الجواب :
– نحن ثلاث أخوات نعيش مع أمنا فقط، إذ إن الوالد تركنا وتزوج بأخرى لتنجب له البنين .. بعدها لم نعلم عنه شيئًا.
قال في نفسه : لعلّ تعلقها بزوجتي وحتى نظراتها المستمرة لي سببهما نقص الحنان الذي تعاني منه المسكينة!
جاء الغداء وبدأ الثلاثة بالأكل بكامل الشهية بعد يوم جامعي حار وطويل.
طلب بهاء ثلاث كؤوس من العصير لكن تسنيم رفضت الطلب خاصتها بعد أن أكلت أكثر من طاقتها العادية.. وهي الآن لا تشتهي العسل!
وبينما كان بهاء ومريم يشربان العصير استأذنت منهما تسنيم قائلة :
– أشعر بأنني سأتقيأ، سوف أذهب للمغاسل.. إبقَ مع ضيفتنا يا بهاء.
تساءلت مريم مع نفسها : هل علي اللحاق بها أم البقاء مع زوجها ؟
أما بهاء فكان يتحدث مع نفسه أيضًا : ماذا لو إن أحدهم رآني مع هذه الفتاة لوحدنا؟!
قام من مكانه وصار يتمشى بعيدًا عن مريم ثم عاد أدراجه وهو يردد بارتباك : ليس من اللائق أن اتركها لوحدها! رحماك يا الله، أي موقف هذا الذي وضعتِني فيه يا تسنيم؟!
عندما عاد أدراجه مذعنًا لصوت الضمير وجد أن مريم قد غسلت وجهها بدموعها!
جلس في مكانه وهو يتساءل بذهول :
– ولكن ما الأمر أختاه؟ لماذا تبكين! ماذا ستقول تسنيم عندما تعود وترى هذه الدموع؟ قد تظن بأنني جرحتكِ بكلمة أو تصرف!
رفعت رأسها وهي تقول :

– هل هذا كل ما يهمك من دموعي ؟ ماذا ستفكر تسنيم عنك! هذا كل شيء؟!
نظر إلى عينيها المتلألأتين بالدموع فخفض رأسه حياءًا وهو يردد :
– أستغفر الله.. أستغفر الله، أرجوكِ يا مريم إمسحي هذه الدموع حالا وقبل أن تأتي تسنيم..
مسحت دموعها وهي تقول بغصة :
– تسنيم.. تسنيم.. تسنيم! ولكن ألا ترى غيرها في هذا العالم؟ إنها عقيم وتحبها بهذا الشكل فكيف إن كانت ولود؟! وهذه التي تجلس أمامك الآن ألا ترى حالها... ؟
صار الدم يغلي في عروقه وهو يسمع مريم تصف زوجته بالعقيم! لم يتمالك أعصابه، ضرب بكلتا يديه على المنضدة وقد وقف بغضب قائلا :
– إسمعي أيتها الخائنة المخادعة، إن زوجتي في نظري أفضل نساء العالم سواء ولدت لي أم لم تلد، فهذا شيء لا يعنيكِ مطلقًا، هل فهمت؟
عاد للجلوس بعد أن رأى النظرات الغريبة من بعض الجالسين قريبًا من منضدتهم..
أردف قائلا وهو يهمس لها :
– كنت أعرف بأنكِ ما تقربتِ منها إلا لكسب ودّي ومحبتي، لكني لا أسمح لنفسي بخيانة تلك الإنسانة الملاك، وحتى لو لم تكن ملاكًا في نظري فإن ظروف الوفاء تمنعني من خيانتها.. أنا لست كأبيكِ ولست كبقية الرجال يا مريم ولن أهدي مشاعري لإمرأة أخرى حتى الممات، هل صار الأمر معلومًا لديكِ الآن؟
عادت مريم للبكاء قائلة :
– ولكن يا بهاء..
صاح في وجهها :
– الأستاذ بهاء.. لو سمحتِ.
– معذرة أستاذ بهاء.. ولكن هل زواجك بإخرى تعتبره خيانة؟ ألم يحلل الله للرجل أن يتزوج بأربع؟!
صار يمسح العرق عن جبينه وهو ينظر تجاه المغاسل خشية أن تأتي زوجته، عاد للكلام مع مريم وقد قرر أن يكون هذا آخر كلامه معها :
– إن الكلام معكِ مضيعة للوقت لأنكِ لا تفهمين ما معنى الوفاء مطلقًا!
والدليل إنكِ خنتِ صديقتكِ منذ أول فرصة سنحت لكِ!
اسمعي يا مريم إن بقيتِ على إصراركِ هذا فسأحول دون بقاء هذهِ الصداقة التي تجمعكِ بزوجتي، خاصة بعد أن تأكدت أنها صداقة مصلحة وليست صداقة حقيقية.
أشارت إليه هامسة وهي تمسح دموعها بسرعة :
– أششش... لقد جاءت، فلنغير الموضوع.

قام من مكانه وسحب الكرسي لتسنيم ثم قرّب كرسيه نحوها وصار يخاطبها برقّة :
– ها يا حبيبتي.. ألم تتحسني ؟!
– تمنيت لو أني تقيأت لكني لم أقدر..
قام وهو يقول :
– سأجلب لكِ من الصيدلية القريبة حبوب ألم المعدة.. لن أتأخر عليكِ بإذن الله ، تحملي أرجوكِ.
شيعته مريم بنظراتها وعادت لتخاطب تسنيم :
– إنه عاشقٌ ولهان..
– مَن تقصدين؟ .. بهاء!
– ومن غيره؟ إنه يعشقكِ كثيرًا.
ضحكت رغم الألم وهي تسأل :
– كيف عرفتِ ذلك أيتها الخبيرة؟
– من قلقه عليكِ، لم يكن مرتاحًا منذ تركتنا!
ابتسمت تسنيم قائلة :
– ألم أخبركِ بذلك مسبقًا، إنها نعمة عظيمة لو شكرت الله عليها حتى آخر لحظة من حياتي لما وفيت حقّ شكره تعالى.
– أي نعمةٍ تقصدين؟
– نعمة وجود (بهاء) في حياتي ووفاءه وإخلاصه اللامحدود.
هزت مريم رأسها وهي تقول :
– صدقتِ في كل كلمة..
وكانت تتمنى أن تلحق عبارتها الأخيرة بعبارة (للأسف الشديد)!!
عاد بهاء مسرعًا وقد بدى عليه القلق والتوتر، ناولها الحبوب وهو يقول برِقّة : تفضلي يا نور عيني.. فديتكِ روحي.
نظرت إليه زوجته نظرة عتاب وقد اخجلها كلامه هذا أمام صاحبتها..
أما مريم فابتسمت ابتسامة باهتة، وطأطأت برأسها كمن خسر المعركة!!

١٥

كان بهاء يمر بمرحلة صعبة قد تكون هي الأصعب في حياته وهو يجاهد نفسه على عدم التفكير بإمرأة أخرى غير زوجته..

كان ذلك منذ اليوم الذي اعترفت له مريم بحبها في ذلك المطعم المشؤوم.

صار يراها كثيراً في أحلامه ومناماته وهي تتوسل إليه أن يرحمها ويخلصها من عذاباتها نتيجة بعده عنها وصدّهُ لها..

وصار بمرور الأيام ينظر لها نظرة عطف ورحمة بعد أن لاحظ إنها تحاول جاهدةً أن تحارب نفسها منذ دخوله قاعة المحاضرات حتى خروجه منها!

فلم تعد كالسابق تبحر بنظراتها في ملامح وجهه وحسن طلعته، فهي أولا وآخراً إنسانة لها كرامتها.

كانت مريم في الحقيقة تعيش فترة قاسية من تأنيب الضمير أكثر من كونها فترة جهاد للنفس كما يظن بهاء!

فبعد ذلك الموقف الذي بدر منها في المطعم مع بهاء كانت مريم لا تنام الليل من شدة لوم النفس وتأنيب الضمير والندم على ما قالته له، فكيف تجرأت على خيانة صديقتها بهذه السهولة!؟

تلك الانسانة التي فتحت لها قلبها، تسنيم طيبة القلب وكريمة الأخلاق تُخان هكذا؟ ومِن قِبل مَن!؟

مِن أقرب صديقاتها.. مريم!

وفي الفترة نفسها صار الكلام يكثر بين الأساتذة حول عدم قدرة الأستاذة تسنيم على الإنجاب، حتى قرر بعضهم مفاتحة بهاء في هذا الموضوع وتشجيعه على الزواج بأخرى..

اجتمع ثلاثة من الأساتذة في مكتب بهاء وبدأ الأستاذ علي بالكلام :

– نحن اليوم في مكتبك لنتحدث معك في موضوع قد يكون لك موضوعاً شخصياً لكنه يهمنا كثيراً لأنك مهم بالنسبة لدينا يا بهاء..

– خير إن شاء الله تفضلوا...!

– إنه بخصوص الأستاذة تسنيم..

– ما بها؟!

– هل هي فعلا غير قادرة على الإنجاب؟!

تفاجأ بهاء من سؤالهم وتمتم قائلا :

– الحمد لله على كل حال.

تساءل الأستاذ مرتضى :

– وهل يعني هذا أن الخبر صحيح؟

– نعم صحيح.

تكلم الأستاذ عمار مندهشاً :

– ولكن هل تبقى أنت هكذا بدون أطفال؟!

قال بهاء بصوت مختنق بالعبرة :

– أرجوكم أخوان.. لا أريد التحدث بهذا الموضوع مطلقاً، فأنا مقتنع بكل ما كتبه الله لي.

عاد عمار للسؤال :

– نعم هذا صحيح في حالة عدم استطاعتك من الزواج بأخرى! فهل الأستاذة تمنع حدوث هذا الأمر؟!

– لا.. لا أبداً ،إنها ولأكثر من مرة حدثتني بهذا الموضوع وأبدت موافقتها على زواجي بثانية ولكن..

قاطعه الثلاثة :

– لكن ماذا يا بهاء!؟

– في الحقيقة أنا من يعارض هذه الفكرة إذ إنني أرى ظروف الوفاء تمنعني من إختيار إمرأة غير تسنيم.

تساءل مرتضى :

– وهل زواجك بأخرى من دون سبب؟ أم إنه لسببٍ مهم، إن لك سببك المقنع في الزواج يا أخي..

تساءل علي بفضول :

– ومن قال بأن الزواج بأخرى يجب أن يكون لوجود سبب أو عِلّة في الزوجة الأولى؟ ثم ألم يكن إمامنا الحسن بن علي عليه السلام (مزواجاً) حتى أنه في نفس المجلس يطلق أربعة ويتزوج بأربع!!!

إحمرَّ وجه بهاء وقد غلى الدم في عروقه وشعر بأنه سينفجر من شدة الغضب، قال بعصبية :

– ما هذا الهراء يا أخي؟! كيف تصدق هذه التهم التي ألصقها أعداء المذهب بإمامنا الحسن عليه صلوات ربي؟!

– و لكن ما بك يا بهاء؟ لِمَ الغضب! فلقد قرأت هذه المعلومة في إحدى المجلات المحترمة، ولا أعتقد بأن الإمام الحسن قد ارتكب محرماً حتى تعتبر هذه المعلومة تهمة باطلة ضده!

هدأ بهاء قليلا محاولا السيطرة على أعصابه ثم أجاب :

– ولكن أي إنسان عادي لا يمكنه فعل هذا الأمر لكونه أمر دنيوي لا يليق بالمؤمنين حتى وإن كان محللا، فكيف يفعله إمام معصوم همهُ الأول والأخير رضا الله تعالى؟!

نعم يمكن أن يفعلها أصحاب الدنيا كخلفاء بني أمية وبني العباس بما نقله لنا التأريخ عن حبهم للنساء الجميلات والجواري ومجالس اللهو والطرب، لكن إمام معصوم كالحسن بن علي بن أبي طالب حفيد الرسول الأعظم وولد علي والزهراء وسيد شباب أهل الجنة مالهُ ومالهذهِ الأمور الدنيوية المستقبحة؟!

ثم إننا نعرف بأن الطلاق أبغض الحلال إلى الله يعني إنه من (المكروهات) وبإن المعصوم لا يعمل الحرام ولا حتى المكروه تقرباً لله تعالى فهم مرة واحدة لا يحبذون فعل المكروه لأن الله يكرهه فكيف يفعل إمامنا الحسن ما يكرهه الله في مجلس واحد ولأربع مرات!!

ردد الثلاثة :

– فعلاً والله.. حاشاه من ذلك!

١٦

تساءل عمار خجلا من كلامه السابق :

– إذاً لماذا يتهمونه (عليه السلام) بهذه الأمور المستقبحة؟!

أجابه بهاء بألم وغصة بانت على نبرات صوته :

– السبب ليس بغضهم لشخص الإمام الحسن عليه السلام بالذات بل هو بغضهم لمذهب أهل البيت عليهم السلام بصورة عامة فكان هذا التشويه المتعمد..

واعملوا يا أصحابي أن إمامنا الحسن عليه السلام أكثر إمام معصوم مظلوميةً من هذه الناحية حتى من بعض شيعته حينما اتهموه بالخذلان ومصالحة معاوية عليه اللعنة..

– ولكن فعلا يا بهاء أولم يصالح الإمام الحسن معاوية بن أبي سفيان؟!

هكذا تساءل مرتضى باستغراب؟! فأجابه بهاء :

تم عقد الصلح بين الإمام الحسن (عليه السلام) وبين معاوية (لعنه الله) لأسباب عديدة أهمها ومن خلال قراءتي لذلك التأريخ إن امامنا الحسن أراد الاحتفاظ بالقلة القليلة من أنصاره ليوم آخر وهو يوم أخيه الحسين عليه السلام (لا يوم كيومك يا أبا عبد الله).

فهو يعلم أن الثورة في زمن معاوية ليست كالثورة في زمن يزيد لما يتمتع به الأول من دهاء وما يتصف به الثاني من غباء!!

فأراد " عليه صلوات ربي" أن يمهد لثورة أخيه بإبرامه لذلك الصلح إذ كانت تلك المرحلة بداية لتجمع الأنصار في زمن قلَّ فيه الناصر .. فلو اجتمع لإمامنا الحسن عليه السلام سبعون رجلا كما اجتمعوا لأخيه الحسين لكانت الأمور أخذت منحى آخر..

لا أقصد انهم قد خذلوا الحسن ونصروا الحسين!! فلا يمكن أن يحصل هذا لأنهم مخلصون ويعرفون أن لا فرق بين الحسن والحسين فهما سيدي شباب أهل الجنة وهما إمامان إن قاما وإن قعدا كما ورد ذلك في أحاديث كثيرة لجدهما رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله).
بل إن اجتماع اولئك الأنصار في زمن الامام الحسن "عليه السلام" لم يكن ميسراً وسهلا كما في زمن الامام الحسين " عليه السلام" للسبب الذي ذكرناه آنفًا وهو دهاء معاوية وغباء ولده يزيد .. اذ كان الأول يتمتع بدهاء ومكر قلَّ مثيله!
فبرأيكم لو كان إمامنا الحسين قد استشهد في زمن معاوية هل سيترك هذا الأخير إمامنا السجاد والسيدة زينب على قيد الحياة ؟!
في حين أن يزيد (الذي كان معروفًا بغباءه) ليس فقط لم يقتلهما في ذلك اليوم بل لم يعرف كيف يسكت صوت الحق الذي أخذ يصدح به كل منهما عن طريق خطبهما الشريفة بعد يوم عاشوراء ، فأصبحا (الامام السجاد والسيدة زينب) الإعلاميين البارزين في نقل حقائق يوم الطف ومظلومية الامام الحسين " عليه صلوات ربي" فاهتز العرش تحت يزيد حين بدأ الناس في الكوفة والشام والمدينة يعرفون الحقائق واحدة تلو الأخرى ، فكانت بداية سقوط الدولة الأموية ..
كل هذا لم يكن ليحدث لولا غباء يزيد!!
ولهذا السبب ولأسباب كثيرة أخرى حددتها الظروف التي أحاطت بالإمام الحسن عليه السلام اضطر "عليه صلوات الله" أن يبرم الصلح مع معاوية وليس كما يصفه بعض المؤرخين بأنه كان مداهنا لمعاوية وموافقا لحكمه ، أو كما ذهب بعضهم الى أن الحسن كان مسالمًا والحسين كان محبًا للحرب والدماء!!
كلاهما سبطا (رسول الله) وولدا (علي وفاطمة) وكلاهما لهما عصمةً من الخطأ والزلل ولكن زمن الحسن يختلف عن زمن الحسين " عليهما السلام" ولكل واحد منهما طريقته التي هيأها الله له في الحفاظ على الإسلام المحمدي الأصيل .

١٧

في إحدى الأمسيات وبينما كانت تسنيم تجلس أمام شاشة الكمبيوتر في حين انشغل بهاء بإعداد أسئلة الامتحانات الفصلية لطلابه وإذا بالباب تطرق طرقات خفيفة..

تساءل بهاء باستغراب :

– الوقت متأخر.. من يكون الطارق يا ترى؟

ذهب ليفتح الباب فتفاجأ عندما وجدها ريان أخت زوجته..

– أهلا وسهلا، تفضلي يا أم افنان.

قالت ريان بصوت حزين وهي تمسك طفلتها :

– السلام عليكم يا بهاء.. هل تسنيم مستيقظة ؟

– نعم.. نعم

وبدأ بمناداة زوجته :

– تسنيم، تسنيم.. إنها أم أفنان !

تعانقت الأختان بلهفة وشوق كبيرين وهما ترددان عبارات اللقاء الجميلة، سأل بهاء ضيفته وهي تهم بالدخول :

– ولكن أين أبا أفنان ؟ لا أراه معك؟

ردت بامتعاض : إنه في الخارج.

هرول بهاء نازلا السلم متجهًا نحو سيارة مالك زوج ريان الذي ما أن رأى بهاء قادمًا نحوه حتى نزل من السيارة فتعانق الاثنان بكل شوق ودعا بهاء ضيفه للدخول لكن الأخير رفض ذلك متحججًا بتأخر الوقت ثم ودع صاحبه ورحل!

عاد بهاء إلى المنزل وما أن دخل حتى سمع صوت ريان تبكي وتسنيم تحاول تهدأتها، أغلق الباب فانتبهت ريان مما حداها لقطع البكاء والركون إلى الصمت والهدوء.

أعاد بهاء إلقاء التحية عليها وجلس وهو يقول :

حاولت دعوته للدخول لكنه رفض!

تكلمت الطفلة وقد فهمت من حديث بهاء بأن أباها قد تركهم هنا ورحل : أريد بابا!

فتح بهاء ذراعيه لأفنان وهو يردد بابتسامة جميلة :

تعالي حبيبتي.. منذ زمن لم أركِ فيه، لقد كبرتِ ما شاء الله تبارك الرحمن.

ركضت الطفلة المرحة والمحبوبة إلى حضن بهاء وهي تصيح ببراءة : عمو بهاء.. عمو بهاء.

دمعت عينا تسنيم وهي تنظر إلى زوجها وهو يداعب تلك الطفلة ويُقبلها بحنان، وشوقه إلى الأطفال كان واضحًا حتى أن ريان انتبهت إلى دموع أختها فربتت على كتفها بصمت.

أخذ بهاء الصغيرة معه وهو يحاكيها بلطف : تعالي لنلعب سوية العابًا الكترونية جميلة.

ركضت أمامه وهي تقفز بفرح وتردد : ألعاب، ألعاب..
تساءلت تسنيم : والآن يا ريان.. ألا تخبرينني بالذي حدث!
بدأت ريان تتكلم بألم وحسرة :
– اتتذكرين كم كنت أعاني من وضعنا المادي الصعب؟
تحسرت تسنيم وهي تقول :
– آه كيف لا أذكر..!
– وهل تذكرين آخر مرة عندما جلبتِ لي ما خصصتِه لي شهرياً من مرتبكِ؟!
– نعم فلقد رفضتِ أخذه وبشرتِني بأن حالتكما المادية تحسنت كثيراً بعد المشروع الأخير الذي دخل به زوجكِ مع صديقه..
– آه يا تسنيم، ليتني بقيت على ذلك الفقر، نعم ليتنا بقينا فقراء معدمين..
– ولكن كيف تتمنين الفقر يا حبيبتي؟
– لإن الفقر مع الطاعة والالتزام الديني لهوَ خيراً لي من الغنى مع المعاصي والذنوب.
– لم أفهم.. اهدأي واشرحي لي ما حدث بدون توتر وعصبية فما ذنب الجنين الذي في بطنك؟!
بدأت ريان بسرد المشكلة لتسنيم والتي بدورها نقلت كل حرف لبهاء لعله يتكلم مع مالك زوج ريان ويساهم في تعريفه بخطأه الكبير الذي ارتكبه في حق نفسه وحق عائلته.
قام بهاء بزيارة مالك في منزله ودار بينهما هذا الحديث :
– مالك يا صديقي، أنت تعلم حتماً سبب زيارتي هذه وقبل كل شيء هل لي بسؤال..
– نعم تفضل يا بهاء..
– ما هو تقصير ريان معك؟
– ليس لديها تقصير، لكنها كثيرة الشكوك..
– وهل كانت كذلك سابقاً؟!
– كلا.. بل منذ فترة قصيرة
– بالتحديد..؟
– بالتحديد عندما رزقني الله مالا وفيراً بعد نجاح المشروع الأخير.
قال بهاء بأسف :
– منذ ذلك الوقت وأم أفنان تلاحظ عليك تصرفات غريبة! فرفقتك لأصحاب السوء وتهديدك بالزواج من غيرها..!
يستمر صمت مالك وهو يستمع إلى كلمات بهاء
الذي أردف قائلا :
– استحلفك بالله يا أخي هل هذا جزاء الزوجة الصابرة؟

عندما كنت تقاسي الفقر والحرمان كانت هي تتقاسم معك آلام هذه الحياة الصعبة بكل صبر ودون تذمر أو شكوى، هل تتذكر أنها في يوم من الأيام اخبرتك بعدم قدرتها على تحمل فقرك وفاقتك؟

هل أسمعتك كلمة جارحة تدل على كرهها للحياة والعيش معك؟

قال مالك بصوت منخفض :

– لا أبدا، لقد كانت صابرة فعلا.

– إذن لماذا تعاملها بجفاء وقسوة؟ إنها تشعر أن الأموال قد غيرتك تجاهها كثيرا..

قاطعه مالك قائلا :

– إنها كثيرة الشكوك والظنون صدقني يا بهاء، صارت حياتي معها لا تطاق إنها تعاملني كأنني المتهم وهي القاضي!

– ولكن هل كانت كذلك منذ بداية حياتك الزوجية؟

لقد اعترفت منذ قليل بأن المشكلة بدأت مع تزايد الأموال لديك وأنها تغيرت عندما تغيرتَ أنت!

والآن أسألك هل فعلا إنك كنت على وشك إقامة علاقة مع إمرأة أخرى؟

– نعم صحيح

– و لكن لماذا؟

– لا أعرف لكني فكرت بأن حياتي مع ريان صارت مملة وكنت فعلاً بحاجة إلى تغيير في روتين حياتي.

– إذن أنت فكرت بالتغيير بمجرد أن رزقك الله من واسع فضله! فبدل أن تشكره تعالى وتعوض زوجتك سنيَّ الفقر والحرمان صرت تفكر باستبدالها بأخرى!!

صدق والله ذلك الحديث القدسي الذي ورد في الكافي فيما ناجى الله تعالى موسى (عليه السلام) :

" يا موسى لا تنسني على كل حال، ولا تفرح بكثرة المال، فإن نسياني يقسي القلوب، ومع كثرة المال كثرة الذنوب ".

قال مالك وهو يأخذ حسرةً طويلة : فعلاً والله يا أستاذ.

تنفس بهاء الصعداء وهو يستمع إلى هذه الكلمات التي تنم عن الندم والاعتراف بالذنب.

– حسنًا يا مالك، بعد اعترافك هذا إسمح لي أن أقول لك بأن الأمر يحتاج إلى قوة الإرادة.

– قوة إرادة؟!

– نعم يا أخي..

إن كل تغيير يجب أن تصاحبه قوة الإرادة التي يتمكن المرء من خلالها إحداث ذلك التغيير في نفسه وفي عالمه الخارجي..

كم من إنسان شعر بذنبه وأحسَّ بخطأه بل واحتاج في قرارة نفسه إلى تغيير حقيقي لكنه فشل بسبب ضعف الإرادة!

– وما هي الارادة ومن أين نستمد قوتها؟!

– من الإيمان طبعًا..

كلما كان إيمانك بمصلحة التغيير في حياتك كبيرًا كانت قوتك في إحداث ذلك التغيير أكبر، وكلما كان شعورك بأن هذا التغيير هو لمنفعتك ولصالحك فستكون إرادتك في الحصول عليه أقوى.

وإعلم يا أخي رحمك الله بأنه تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.. كما جاء ذاك في محكم كتابه الكريم.

عليك أن تبدأ بنفسك أولا وتجاهدها على مخالفة الهوى والشيطان، فجهاد (النفس) هو الجهاد الأكبر كما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

إن حياتنا محطات للاختبار والابتلاء، يقول تعالى :

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ).

إنه تعالى في هذه الآية يخبرنا بأنه في كل محطة من محطات الدنيا هناك إختبار وابتلاء وفتنة! كل ذلك ليميز الصادق في إيمانه وتقواه من الكاذب المنافق، فاحذر أن تفشل في هذه الإختبارات وأنت تركن إلى هوى نفسك متناسيًا قوله تعالى (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ، فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى).

بعد أن أنهى بهاء كلامه هذا قام ومدّ يده نحو مالك قائلا وهو يودعه :

– أتركك الآن في أمان الله وحفظه..

– إنتظر يا بهاء سأذهب معك لأخذ زوجتي وابنتي.

– أرجو أن يكون قرارك هذا بعد تفكير طويل، لذلك حاول أن تتروى قليلا في مسألة المجيء لأخذهما، تعال غدًا أو بعد غد..

فمجيئك الآن سيجعل ريان تظن بأنني أنا من ألححت عليك بمصالحتها وبأن الأمر لم يكن من ذاتك!

قال مالك ساخرًا :

– نعم صحيح ،وخاصة أنها أبدًا لا تعرف كيف تسيء بي الظنون!

ضحك الاثنان وتوادعا على أن يلتقيا قريبًا جدًا لوضع آخر حد للخلافات العالقة بين مالك وزوجته ولتعود المياه إلى مجاريها.

١٨

ها هو اليوم العاشر لتواجد ريان في بيت أختها..
كان بهاء يتساءل مع نفسه : لماذا لم يحضر مالك لأخذ زوجته كما وعده؟!
أما ريان فكانت تذبل يومًا بعد يوم كالوردة التي تم قطعها من الغصن رغمًا عنها..
أما الصغيرة أفنان فلقد نشأت بينها وبين بهاء علاقة قوية حتى صار الأخير لا يقوى على مفارقتها، صار لا يتخيل كيف سيكون البيت عندما ترحل عنه هذه الطفلة الصغيرة!
كان منذ دخوله البيت وحتى ذهابه للنوم لا يفتأ يلاعب تلك الطفلة ويُداعب ظفائرها الذهبية وهي تجلس في حضنه تارةً وترتمي على أكتافه تارةً أخرى ما أن يناديها فاتحًا ذراعيه لها : حبيبتي أفنان.. تعالي إلى حضن عمكِ بهاء.
كانت تسنيم تنظر إلى كل تلك المشاهد بعيونٍ دامعة وقلبها تملأه الحسرة واللوعة، فهي تعلم بأن العلاقة المتينة التي أنشأها بهاء مع هذه الطفلة نابعة من حاجته القوية إلى الأولاد وشعوره الأبوي الذي لم يعد باستطاعته إخفاءه بأي حال من الأحوال!
صارت أفنان تذبل هي الأخرى بمرور الأيام وكأنها تشاطر والدتها أحزانها ولوعتها، كان كل من بهاء وتسنيم يلاحظان هذا الذبول وهذا الشحوب على وجه الصغيرة وهما يدعوان الله ليل نهار أن يجمع شملها بأبيها الذي صارت تلهج بإسمهِ طول الوقت!
وفي إحدى الليالي الممطرة وبينما كان الجميع يستعد للنوم طرقت ريان باب غرفتهما بقوة وهي تصرخ :
– تسنيم أسعفيني، أفنان حرارتها مرتفعة جدًا..
– فتحت تسنيم الباب وركض بهاء باتجاه الغرفة التي تنام فيها الصغيرة وهو يردد : أفنان حبيبتي..
وضع يده على جبين الطفلة فوجد إن حرارتها – وكما وصفتها ريان – مرتفعة جدًا.
عاد أدراجه مسرعًا نحو غرفته، غير ملابسه وطلب من الامرأتين أن تهدءا قليلا حتى يعود من المشفى.
حمل أفنان على ذراعيه وخرج من المنزل متجهًا نحو السيارة، لكن الأم والخالة لم تتحملا فاتجهتا نحوه تتوسلان أن يصحبهما إلى المشفى، وافق بهاء وانطلق الثلاثة بالطفلة التي صارت تهذي وتتكلم بكلام غير مفهوم من شدة الحرارة التي استعرت في جسمها النحيل.
في المشفى كان بهاء يبدو عليه الارتباك والقلق أكثر من الامرأتين اللتين لم تتوقفا لحظة عن الدعاء والابتهال إلى الله تعالى في شفاء تلك الصغيرة.
أما بهاء فكانت دموعه كافية لتجعلك تعرف مدى الحب الذي صار يكنه في قلبه لتلك الطفلة!
وبعد أن هدّأ الطبيب من روعه سأله قائلا :
لماذا تردد أفنان عبارة (أريد بابا) رغم تواجدك القريب منها؟

جلس بهاء على الكرسي المقابل للطبيب وقد اتكأ بذراعيه على ركبتيه ودسَّ وجهه بين كفيه وهو يردد :

– نعم أنا الآن بقربها.. لكني لست أباها.

– ماذا؟ وأين أباها إذن؟

– غير موجود حاليا

– وهل أنت عمها؟

– أنا زوج خالتها..

– إذن الطفلة مشتاقة إلى والدها ويجب أن تتصلوا به ليحضر ويراها في أقرب وقت.

– ولكن هل حالتها سيئة يا دكتور؟

– لا.. إنه مجرد إجهاد عصبي، فهي كثيرة التفكير به حسب ما رأيت.

– الحمد لله.. هل بإمكاننا إخراجها الآن؟

– لا.. الأفضل أن تبقى هذه الليلة في المشفى حتى تستقر حالتها.

اتجه بهاء نحو زوجته وأختها واخبرهما بكل ما قاله الطبيب، كما اخبرهما بأنهم يجب أن يبقوا هذه الليلة في المشفى بجانب أفنان حتى تستعيد عافيتها.

جلس بهاء بجانب سرير أفنان وهو يقرأ بعض السور القرآنية واضعًا يده اليمنى على جبهتها بعد أن انخفضت حرارتها قليلا.

أما تسنيم فقد أخذت ريان إلى قاعة الاستراحة بعد أن أحست الأخيرة بأنها بحاجة إلى الاسترخاء والراحة.

وفي أثناء مسيرهما كانت تسنيم توزع نظراتها بين غرف المرضى وهي تردد : اللهم ارزقهم العافية والصحة بحق صاحب الزمان.

وفجأة خُيِّلَ إليها بأنها رأت طالبتها وصاحبتها مريم ترقد على أحد الأسرّة في إحدى الغرف!

تساءلت مع نفسها : هل يمكن هذا؟! ولكن ماذا تفعل مريم هنا في المشفى !!

وصلت تسنيم إلى قاعة الاستراحة وساعدت ريان في الجلوس بالقرب من إحدى أجهزة التدفئة التي كانت منتشرة في تلك القاعة ثم استأذنتها لتتأكد من ظنونها..

انطلقت تسنيم إلى غرفة رقم (4) دخلت تلك الغرفة وشهقت عندما رأت حالة مريم وما كانت عليه من ضعف ونحول!

اقتربت تسنيم أكثر وأكثر من سرير طالبتها ولما جاءت عيناها بعيني مريم بكت الاثنتان معًا وتشابكت أياديهما وبادرت تسنيم بالكلام قائلة :

–حبيبتي هل هذا سبب غيابكِ المفاجئ عن الجامعة؟!

ولم تدع صاحبتها تجيب حتى اردفت قائلة :

– ومنذ متى أنتِ ترقدين هنا؟ وهل حالتكِ خطرة أيتها الغالية؟
ابتسمت والدة مريم والتي كانت تقف بجانب سرير ابنتها ثم سلمت على تسنيم بحرارة وهي تقول :
– أظنكِ إحدى صديقات إبنتي.. هل أنا مُحقة؟
– نعم نعم يا خالة.. وأظنكِ والدة مريم.
– نعم أنا والدتها.. اطمئني يا ابنتي، الآن حالتها مستقرة إن شاء الله.
تكلمت مريم بصعوبة وهي ما تزال ماسكة بيد تسنيم :
– ولكن ما الذي أتى بكِ في هذا الوقت المتأخر، وكيف عرفتِ بأني أرقد هنا؟!
– في الحقيقة أنا هنا صدفة حيث لم أكن أعلم بوجودكِ، وأنا أعتب عليكِ يا مريم لماذا لم تخبريني؟!
– وماذا تريدين أن أخبركِ؟ هل.. هل.. (وصارت مريم تبكي ووالدتها تحاول تهدأتها)
– ولكن ما الأمر حبيبتي؟ هكذا تساءلت تسنيم.
قالت والدة مريم وقد دمعت عيناها ورقَّ صوتها كثيراً وصارت تبدو عليه نبرة الحزن واضحة جلية
– لقد دخلت مريم المشفى منذ أكثر من أسبوعين بعد أن تعب قلبها كثيراً..
– ماذا؟ قلبها! ولكن ما سبب كل هذا؟
– إن قلبها ضعيف منذ الولادة لكنها الآن تحتاج إلى راحة تامة بعد أن تعبت حالتها النفسية كثيراً في الفترة الأخيرة مما أثر سلباً على قلبها.
شدّت تسنيم بيدها على يد طالبتها قائلة :
– خلال هذه الفترة لاحظت غيابكِ عن الجامعة وحاولت أن أتصل بكِ مِراراً فلم أحصل على نتيجة ، سألتُ بهاء عنكِ فقال إنه لا يعلم أيضا ما سبب إختفاءكِ المفاجئ!
قاطعتها أم مريم لتسألها :
– ولكن من هو بهاء؟!
– إنه زوجي يا خالة.
أدارت مريم بوجهها نحو والدتها قائلة لها :
– أماه.. إنها الأستاذة تسنيم، وزوجها هو أستاذي بهاء لقد أخبرتكِ عنهما من قبل.
شهقت الأم وهي تضرب على صدرها بقوة :
– اعذريني يا أستاذة توقعتكِ صديقتها! شكلكِ يوحي بأنكِ بعمر ابنتي تماما!!
ابتسمت تسنيم قائلة :
– لا تعتذري يا خالة لم يحصل شيء على الإطلاق، نحن صديقتان فعلاً.
بعد ذلك استأذنت تسنيم من الامرأتين واتجهت إلى حيث زوجها وأختها.

١٩

بعد معرفة مريم بتواجد تسنيم وبهاء في نفس المشفى الذي ترقد فيه صارت تشعر بأنهما ما أتيا إلى هنا إلا لحكمةٍ إلهية!

لم تستطع أن تنام تلك الليلة فأخذت الهاتف واتصلت على تسنيم طالبةً منها المجيء إلى غرفتها..

فرحت تسنيم بالطلب خاصة أنها لم تكن تعرف ماذا تفعل في هذا الوقت بعد أن نامت أفنان ووالدتها وكذلك بهاء فلقد اتجه إلى إحدى الغرف الخاصة بالرجال واستسلم هناك للنوم.

كانت تسنيم في ذلك الوقت تنتظر حلول وقت الفضيلة لصلاة الليل فهم ما زالوا في الثلث الأول منه..

اتجهت بعد ذلك الاتصال نحو الغرفة التي ترقد فيها مريم وهناك دار هذا الحديث بينهما :

– هل زوجكِ مريض يا أستاذة؟ أصدقيني الخبر..

– لا.. لا سمح الله، إنها ابنة أختي..

ثم صارت تسنيم تسرد القصة لمريم، وبعد أن أكملت ما في جعبتها من كلام طلبت من مريم أن تصدقها الخبر هي الأخرى عن كل هذا الخفاء لأمر مرضها!

وهنا أسقط في يد مريم قالت ودموعها تسبق كلماتها :

– لقد استدعيتكِ الآن لأخبركِ عن أمرٍ آخر غير أمر مرضي، أمر لطالما أخفيته عنكِ رغمًا عني.

– ولكن هل هناك أمر تخفيه عني غير أمر مرضك؟!

– نعم يا أستاذة.. لم أشأ إخباركِ به لكن وبعد أن أتيتِ بنفسكِ إليَّ، صرتُ أشعر بأن الله أرسلكِ إلى هنا لأخبركِ بذلك الأمر لأبرئ ذمتي معكِ قبل أن أرحل إلى العالم الآخر.

– ماذا؟ لا.. لا تقولي هذا أرجوكِ، إن قلبي ينقبض ألمًا وأنا أسمعكِ تتشائمين بهذه الطريقة!

– إنه ليس تشاؤم يا أستاذة بقدر ما هو حقيقة، لقد صارحني الطبيب بكل شيء، قال إن بقيت على حالتي هذه ولم أتحسن فهذا معناه الموت القريب ..

قاطعتها تسنيم بعصبية :

– ولكن كيف يقول لكِ ذلك! ألا يخشى عليكِ من الإحباط واليأس! هل سيبقى جهازكِ المناعي يعمل بصورة جيدة وأنتِ تسمعين كل هذا الهراء!! لماذا لا يراعي هذا الطبيب شرف المهنة؟!

– بالعكس يا أستاذة، إنما قال لي ذلك لأساعد نفسي على التحسن وإلا فسيكون الأمر كما قال.

– اسمعي يا مريم، الأمر ليس بيدكِ ولا بيد الطبيب فالاعمار بيد الله وحده، لذلك توكلي عليه ولتكن ثقتكِ به سبحانه لا بغيرهِ.. اتفقنا؟!

– ليس هذا ما أردت التحدث فيه الآن، وسوف لن ألفَّ وأدور كما يقولون! سأدخل مباشرة في ما أردت قوله حين استدعيتكِ إلى هنا..

لقد تقربتُ منكِ في بادئ الأمر ليس لأجل أن تساعديني وتأخذي بيدي نحو طريق الصلاح كما أوهمتكِ مسبقًا، إن السبب كان شيئًا آخر..

بدأت مريم بالسعال فخاطبتها تسنيم قائلة :

– أيًا كان السبب فإن الأمر لا يهمني بقدر ما تهمني صحتكِ الآن صدقيني..

– أرجوكِ أستاذة أنتِ تعذبينني أكثر بكلماتكِ هذه وطيبة قلبكِ التي أخجل من نفسي كلما تذكرتها!

لقد كان السبب في تقربي إليك هو.. هو.. حبي لزوجكِ الأستاذ بهاء..

صارت مريم تبكي بشدة حتى خافت تسنيم من أن تستيقظ أم مريم وتتساءل عمّا جرى لابنتها!

– أرجوكِ مريم.. اهدأي ،هل تقصدين بأنكِ كنتِ معجبة ببهاء؟!

– نعم يا أستاذة، لقد أحببته بكل ما يحمل من صفات الرجولة وكنت لم أعرف بعد طبيعة علاقتكما مع بعضكما، ولما عرفت بأنكِ زوجته وسوس لي الشيطان أن اقترب منكِ وأعقد صداقة معكِ لأتقرب

بعد ذلك من الأستاذ بهاء ولعلني استطيع حينها أن استحوذ على قلبه! كم كنت غبية ولعينة!

كانت تسنيم تستمع لكل هذا بدهشة وذهول، هل حقًا إن مريم كانت غبية؟ أم إنها هي الغبية والمغفلة!!

عادت مريم للتحدث وسط صمت تسنيم وحيرتها :

– عندما عرفتكِ على حقيقتكِ قررت أن أنسحب من هذه اللعبة القذرة، لكن كلماتكِ عن الدين والإمام الحجة عليه السلام وعن أمور جميلة أخرى جعلتني انجذب إليكِ لا إراديًا، صرت أفكر فعلاً في تغيير نفسي نحو الأفضل والأحسن لكن إبليس لم يتركني عند هذا الحد! ففي تلك الظهيرة التي ذهبت فيها معكم إلى المطعم وعندما قمتِ وتركتِنا لوحدنا أنا والأستاذ بهاء قمت بأخباره عن حقيقة مشاعري..

شعرت تسنيم بأن النار شبّت في صدرها وهي تستمع لكل تلك الصراحة من مريم وقررت ترك الغرفة حالاً بل ترك المشفى بالكامل!!

لكن أمرًا ما يدعوها للبقاء، في تلك اللحظة لم تكن تريد أن تعرف إلا إمرًا واحدًا فقط.. وهو ما ردة فعل بهاء حينما صارحته مريم بحبها؟!

أكملت مريم وهي تلاحظ التغير الكبير الذي طرأ على تسنيم :

– يا إلهي كم كنت منافقة! كنت أعرف بأن بهاء هو مصدر سعادتكِ في هذه الحياة لكنني اذعنت لأمر الشيطان ولم أراعي قوة الصداقة التي كانت تجمعني بكِ!

هل تعرفين شيئًا يا أستاذة؟ إن زوجكِ ليس رجلا عاديًا حتى يمكنني أن اتلاعب بمشاعره وأحاسيسه بسهولة كما كنت أظن! إنه إنسان مؤمن ومخلص في الوقت نفسه، نعم مخلص بوفاءه وحبه لكِ لذلك قام بصدّي بقوة، لقد نهرني في ذلك الوقت بشدة وطلب مني أن أبتعد عن حياتكما إلى الأبد.

شعرت تسنيم بشيء من الراحة والهدوء حينما سمعت ما كانت تريده بخصوص موقف بهاء من كل هذا..

أكملت مريم :

– بعد ذلك الموقف صار تأنيب الضمير يدمرني شيئًا فشيئا، وصارت الآلام والاوجا ع تدب في جسمي وتنخر في قلبي.. حتى وصل الأمر بي إلى ترك الجامعة والرقود في المشفى كما ترين.

قامت تسنيم من مكانها وهي تمسح دموعها وتقول :

– إنه الثلث الأخير من الليل وهو كما تعلمين وقت الفضيلة لصلاة الليل، عليَّ أن (أرادت أن تقول : علي أن أذهب لأوقظ بهاء ليصلي، لكنها صمتت وأبدلت كلامها) عليَّ أن أذهب لأصلي قبل حلول الفجر.

٢٠

في الصباح جاءت تسنيم لتودع مريم فوجدتها نائمة فحمدت الله على ذلك لأنها لم تكن مستعدة للحديث معها على الإطلاق!

سلّمت على والدتها وخرجت، وما أن مشت بضع خطوات خارج الغرفة حتى سمعت صوت أم مريم خلفها وهي تستوقفها!

وقفت تسنيم متسائلة :

-نعم يا خالة.. هل من خدمة؟!

-أستاذة تسنيم لقد سمعت كل ما دار بينكما من حديث أنتِ وابنتي ليلة أمس حيث استيقظت على صوت بكائها!!

-ماذا ؟

-نعم وعرفت أنها تعاني كثيراً من تأنيب الضمير، إنها تعيش صراعًا نفسيًا كبيراً بسبب حبها لكِ وفي نفس الوقت تعلقها الكبير بزوجكِ..

تقطعت الكلمات في فم تلك المرأة وصارت الدموع تحكي عمّا تريد قوله!

لم تعرف تسنيم بماذا تتكلم فساعد صمتها على استمرار أم مريم في الحديث :

-اسمعي يا أستاذة.. إن ابنتي تعيش سنواتها الأخيرة بسبب تعب قلبها الشديد الذي زاد أكثر من ذي قبل نتيجة أعصابها المنهارة في الفترة الأخيرة.

وأنا الآن أتساءل هل بأمكانكِ أنتِ وزوجكِ أن تجعلاها سعيدة وهي تودع هذه الحياة؟!

-آه يا خالة.. لا تقولي هذا، الأعمار بيد الله وليس بيد أي أحدٍ منا ، صدقيني.

ثم أمسكت تسنيم بيد أم مريم وهي تعدها بأنها ستسعى سعيها في إسعاد قلب ابنتها قريباً جداً بإذن الله تعالى .

خرجت تسنيم من المشفى مع زوجها واختها والطفلة المشتاقة لوجه أبيها..

وتفاجأ الجميع عندما وجدوا مالك ينتظرهم عند باب المشفى!

ركضت أفنان باتجاهه والدموع تسيل من عينيها، حضنها مالك وهو يقبلها بحرارة ويردد :

-اعذريني يا حبيبة قلبي لن أبتعد عنكِ بعد اليوم أبداً.

التفت إلى زوجته قائلا :

-كيف حالكِ ريان؟!

ثم التفت إلى بهاء معتذراً وهو يقول :

-اعذرني يا بهاء فلقد تأخرت بعض الشيء حتى يكون هناك مجال للتفكير ليس لي وحدي بل لزوجتي أيضا.

-لا عليك يا مالك.. أنا الآن أفكر في شيء واحد فقط..

-ما هو؟

-كيف سأفارق صغيرتي وحبيبة قلبي أفنان؟!

قالت تسنيم مازحة :

-إحم إحم.. إن كانت أفنان حبيبة قلبك فمن أكون أنا يا ترى؟!

ضحك الجميع ثم توادعت العائلتان وكل فردٍ فيهما كان لديه أمل كبير بالله وبأنه سبحانه سيجبر عن قريب جداً تلك القلوب المنكسرة.